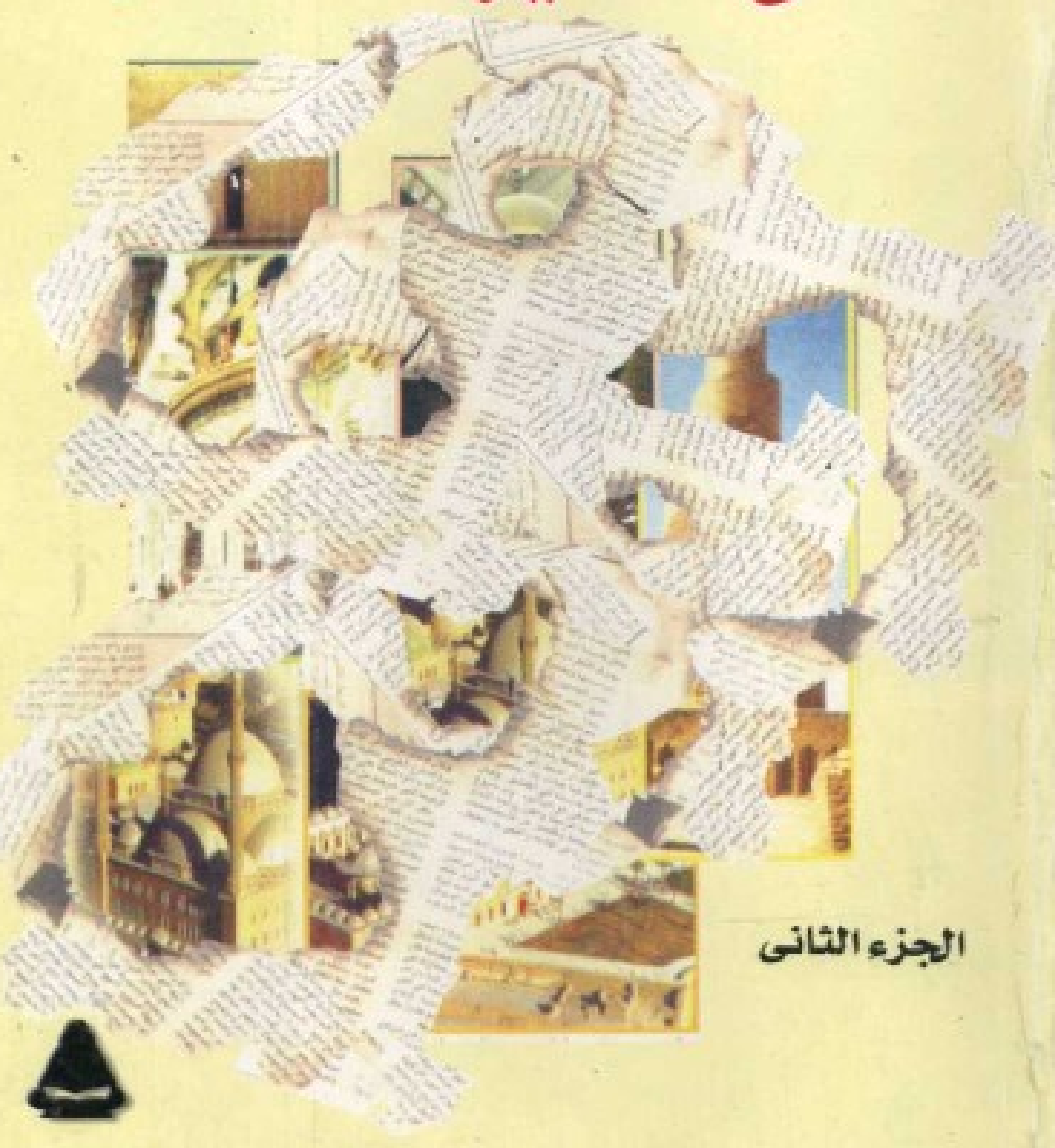
جمال بدوى

فى دهاليز الصحافة



الجزء الثانى

في دهاليز الصحافة
(الجزء الثاني)

تصميم الغـلاف
والإشراف الفنى : صبرى عبد الواحد

جمال بدوى

فى دهاليز الصحافة

(الجزء الثانى)

طه حسين صحافياً

يفخر أبناء مهنة الصحافة بانتساب عميد الأدب العربى إليهم، وأنه تدرج فى بلاط صاحبة الجلالة منذ بواكير حياته الأزهرية حتى بلوغه قمة الحياة الأدبية والثقافية، ويعتز الصحفيون بأن أسم طه حسين لايزال مدرجا فى سجلات عضوية نقابة الصحفين منذ إنشائها، وقد فكروا مرة فى ترشيحه نقيبا للصحفيين لولا تدخل القصر الملكى الذى كان يرى فى طه حسين ثائرا يؤلب الطبقات المظلومة، ويدعو إلى العدالة الإجتماعية.

ومن يراجع العديد من الصحف والمجلات التى صدرت منذ مطلع القرن العشرين: سيجد أسم طه حسين مرصعا على صفحاتها، محررا أو كاتبا أو باحثا أو رئيسا للتحرير. وكانت البداية فى «الجريدة» عندما طرق بابها فور صدورها فى عام ١٩٠٧ فوجد من عميدها ومؤسسها

أحمد لطفى السيد باشا كل رعاية وتشجيع، وكانت كتاباته الأولى مجرد تعقيبات على المحاضرات التى كانت تلقى فى دار «الجريدة» وأعجب فيلسوف الجيل بالشاب «المشاغب» المشبع بروح العناد والنقد الحاد، فاحتضنه ودفع به إلى قاعة محاضرات الجامعة المصرية الوليدة ليكون صوتا جريئا يحرك المياه الراكدة فى بحار الفكر. ولما ضاقت «الجريدة» عن استيعاب نفثاته الثورية يمم شطر «اللواء» ورئيس تحريرها يومئذ الشيخ عبدالعزيز جاويش الذى خلف الزعيم مصطفى كامل فى رسالته الصحفية ونزعته الثورية، وصار ضمن محرريها وكتابها، ومنها إنتقل إلى جريدة «السفور» وبعد عودته من البعثة فى فرنسا: صار طه حسين أستاذا فى الجامعة المصرية القديمة، فكان أول نشاط جامعى له أن شجع تلاميذه على إنشاء مجلة «الجامعة» فكانت أولى المجلات الجامعية فى تاريخ الصحافة المصرية، لتكون منبرا يتدرب فيه الطلاب على حرية الفكر والتعبير، ولم تكن هذه المجلة المتواضعة لتتسع لما يجيش به صدر طه حسين من ثورة على الجمود والركود، فوجد مبتغاه فى جريدة «السياسة» عند صدورها فى أواخر العام ١٩٢٢ وقد اختارته محررا أول لصفحتها الأدبية. وعلى صفحاتها كتب المقالات التى جمعت فيما بعد وصارت كتابا من أربعة أجزاء عنوانه «حديث الاربعاء».

يتساءل نقيب الصحفيين المصريين الراحل الأستاذ حافظ محمود: هل كانت صفحات «السياسة» تتسع لكل جوانب ثورته؟ ويجيب: لا.. لقد اقتحم طه حسين بقلمه الجرىء مكان الصدارة فى الإفتتاحيات السياسية للجريدة، فأدخل على أساليب الصحافة المعاصرة أدبا فنيا

جديدا لا عهد به من قبل، خاصة يوم صور الساسة على صور الآلهة الإغريق، وقسمهم ساخرا إلى آلهه، وأنصاف آلهه، وأرباع آلهه، فكان الناس - أصدقاؤه وخصومه - يطربون لهذا الأسلوب الساخر الجديد، ثم ما لبث أن قفز بثورته البيانية إلى عناوين المقالات التقليدية فمحاها محو كاتب مقتدر، واستبدل بعنوان مقاله عن استقالة وزارة سعد باشا زغلول عنوانا جديدا «إذن .. لقد استقالت، فكانت كلمة «إذن» في المقال تساوى عشرين مقالا. يؤمئذ استقبله تلاميذه فى الجامعة معجبين مهللين مصفقين، فإذا بالأستاذ يقول لطلابه: مكانكم..ان الجامعة معبد من معابد العلم لايقربه إلا الذين يخلعون بدابر احذية السياسة الحزبية عن الدور الرائد الذى قام به طه حسين من خلال اشرافه على صحيفة «السياسة الأسبوعية» يقول حافظ محمود أن هذه الصحيفة حملت اللواء الأول للثورة الثقافية فى العالم العربى كله، ولم يكن التفكير فى إصدار هذه الجريدة فى عام ١٩٢٦ إلا صدى للنجاح الصحفى الذى حققه طه حسين فى الصفحة الأدبية بجريدة «السياسة اليومية» فكان طبيعيا أن يكون طه حسين من النجوم اللامعة فى هذه الجريدة الثقافية الأولى وعلى صفحاتها تعلمنا من طه حسين كيف تكون للرأى الحر قداسته. ولقد قدم لنا هذا الدرس العظيم بالمقال الذى رد به على مجموعة الكتب وعشرات المقالات التى ظهرت فى التعليق على كتابه «الشعر الجاهلى». وكان موضوع المقال وعنوانه «الدين والعلم» .. وكانت كل كلمة تحت هذا العنوان تقديسا للدين على مكانته وإعلاء للعلم على رفعته، ودرسا فى حرية الفكر على قمته. وهنا تدخلت المقادير لترى الناس أن الضمير الصحفى عند طه حسين فوق التحديات جميعا.

لقد كانت أبغض الصحافة إلى نفسه صحافة الجدل الهازل، وكانت تمثلها فى ذلك الوقت مجلة «الكشكول» لصاحبها سليمان فوزى ومع هذا فما إن قبضت السلطات على صاحب الكشكول - التى كان العميد ينكر لونها - حتى دعا إلى اجتماع عاجل لكبار الصحفيين كى يحتجوا على هذا الإجراء، وكان هذا الأجتماع هو الأول من نوعه فى تاريخ الصحافة، ومازال طه حسين يحرك الصحفيين حتى افرج عن الرجل .
وكان لسان طه يردد فى مثل هذه المواقف دائما قول فولتير لروسو: انا اعدى أعدائك فى الرأى، لكننى على أتم استعداد لأن أبذل أخر قطرة من دمى فى سبيل حرية رأيك.

ودارت الأيام وأصبح طه حسين أستاذا فى جامعة القاهرة بعد إنتقالها إلى إشراف الحكومة وضاق الطغيان بهذا الأستاذ الذى يكتب المقالات فى الصحف تحت عنوان «لقد هوى نجم الطغيان وأخرج العميد من الجامعة بأمر ملكى واشفقت القلوب منه إلا قلبا واحدا تفتح له ودافع عنه ورحب به هو قلب الصحافة، فصار رئيسا لتحرير جريدة «كوكب الشرق» فكان قلمه فيها الكوكب المشع بأشعة الموت للطغيان، ثم رأس تحرير جريدة «الوادى» فكان يصرخ فى وجه الطغاة بقولة فولتير أيضا. وماذا على أن لم يكن لى تاج.. إننى أحمل قلما. ثم عاد إلى الجامعة أستادا وعميدا لكلية الآداب وينشئ للصحافة معهداً عاليا ليخرج فيه صحفيون متخصصون على درجة عالية من المعارف والعلوم ثم يصير وزيرا للتعليم ويعتز الصحفيون بأنه من وزراء صاحبة الجلالة الصحافة قبل أن يكون من وزراء صاحب الجلالة الملك وبعدها ظل يحارب بقلمه على صفحات الصحف مثل فارس لايغمد سيفه فقد كان سيفه قلما ... وقلمه سيفه.

مشاغبات طه حسين

كانت الصحافة هى الميدان المحبب إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين لكى يصول ويجول ويثير غبار المعارك الفكرية والأدبية، وكان «المقال» هو أقرب أدوات التعبير إلى نفسه حتى بعد أن صار أستاذا فى الجامعة يلقى المحاضرات على تلاميذه فى المدرجات، فقد كان ميدان الصحافة أوسع من جدران الجامعة، واقدر على توصيل أفكاره إلى جمهور اكبر عددا وربما أعمق ثقافة وأقدر على الجدل من فئة الطلبة، والراصد لمعارك طه حسين يجد أنها بدأت على صفحات المجلات الأدبية «كالهلال والرسالة» أو الصحف السيارة مثل «الأهرام والبلاغ والسياسة وكوكب الشرق»، ثم تأجج لهيبها بفعل المقالات والردود التى كان ينشرها النقاد والمفكرون ردا على كتابات طه حسين، ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها كانت مرحلة ازدهار المقال فى شتى نواحيه الأدبية والسياسية والإجتماعية.. وعلى سبيل المثال لا الحصر:

اندلعت معركة حامية حول إنتماء مصر، وهل هى عربية أم فرعونية، وبدأت المعركة على صفحات «كوكب الشرق» بفقرة وردت فى مقال لطه حسين قال فيها: «إن المصريين خضعوا لضروب من البغى والعدوان جاءتهم من الفرس واليونان من التاريخ القديم، وجاءتهم من العرب والترك فى التاريخ الوسيط، ومن الفرنسيين والإنجليز فى العصر الحديث».. وكانت هذه العبارات وقودا لمعركة حامية شارك فيها كتاب عرب ومصريون تصدوا لمقولة طه حسين وبينوا ما فيها من تجاوز.

ولم يكد يهدأ غبار هذه المعركة حتى عاد طه حسين إلى إثارتها من جديد عندما نشرت مجلة «المكشوف» اللبنانية نص حوار له مع بعض الشباب العرب المتحمسين للوحدة العربية، ولكن صدمهم طه حسين حين قال لهم: «لا تصدقوا ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون للعروبة، فالأكثرية الساحقة من المصريين لاتمت بصلة إلى الدم العربى والفرعونية متأصلة فى نفوس المصريين، وستبقى، بل يجب أن تبقى وتقوى لأن المصرى لن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف».. وقد تصدى المفكر العراقى ساطع الحصرى لافكار طه حسين وقال على صفحات «الرسالة» متسائلا: وهل الوحدة العربية تتطلب من المصريين التنازل عن المصرية؟ وأجاب: أنا لا أتردد فى الإجابة بالنفى، لإنى أعتقد بأن دعوة المصريين إلى الإتحاد مع سائر الإقطار العربية لا تتضمن حثهم على التنازل عن المصرية، وكل ما يطلبه دعاة الوحدة العربية منهم أن يضيفوا إلى شعورهم المصرى الخالص شعورا عربيا عاما، وأن يعملوا للعروبة بجانب ما يعملونه للمصرية.

ولما كان طه حسين من اشد المناصرين للثقافة اليونانية فأنه بالغ فى تقدير اليونان إلى القول بأن الناس فى الشرق والغرب مدينون لثقافة اليونان.. وقال على صفحات «الهلال» لم يكن للشرق فى تكوين الفلسفة اليونانية والعقل اليونانى والسياسة اليونانية تأثير يذكر.. وأنكر أى فضل للثقافة المصرية القديمة على اليونان، بل جعل الثقافة العربية تابعة لثقافة اليونان، وقال أن العقل العربى إنما نشأ ونما وانتج حين اتصلت الأمة العربية بعد الفتح بالأمم الأجنبية الأخرى فأعطتها دينا ولغة وأدبا، وأخذت منها علما وفلسفة وفنا وسياسة وإدارة وتدبيرا ونشأ من هذا الأخذ والعطاء مزاج خاص هو هذا العقل العربى الذى تراه فيما نقرأ من آثار أدبائنا وعلمائنا وفلاسفتنا.. فالعقل العربى الإسلامى أنتج حين أتصل بالعقل اليونانى. وتصدى له زكى مبارك فى مقالات لاذعة على صفحات «الرسالة» وكتب تحت عنوان: نزعة تمجيد اليونان أن العرب لايزالون أقوياء يخشى بأسهم وذكرياتهم الأدبية والعلمية والتشريعية مقرونة بالاسلام وكل إحياء لذكريات العرب خليق بأن يثير الزهو والكبرياء فى نفوس الأمم الإسلامية وآثار العرب ترجع فى صميمها إلى التشريع وهو من المعانى الجافة التى لايقبل عليها غير أهل الجد من كبار الباحثين ولا كذلك آثار اليونان فإن معظمها يرجع إلى الأدب الصريح الذى يثير الشهوات.

وأثار طه حسين جدلا طويلا حول طريقة كتابة التاريخ عندما أعتمد على كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الاصفهانى فى تصوير الحياة العقلية للقرن الثانى الهجرى مما ادى إلى اسباغ صورة الخلاعة والمجون على هذا العصر، وحكم على العصر بأنه عصر مجون من

خلال أشعار بشار وأبى نواس. ورأى أن هؤلاء الشعراء يمثلون عصرهم حقا وكانوا أشد تمثيلا لحياته من الفقهاء والمحدثين وعلماء الكلام، وقوبل هذا الرأى الذى نشره طه حسين على صفحات جريدة «السياسة» بهجوم عنيف من بعض النقاد كان أبرزهم الكاتب السورى رفيق العظم فقال أن الحقائق التاريخية ولا سيما فى تاريخ الإسلام: شبه الدر الملقى بين اشواك يحتاج ممن يريد استخراجه إلى اناة وصبر ونظر فى وجه السلامة من أذى الأشواك.

الصحافة النسائية

اشتهر قاسم أمين فى التاريخ الإجتماعى بأنه أول من نادى بتحرير المرأة من خلال المقالات التى كان يكتبها فى صحيفة «المؤيد» ثم احتواها كتابه المشهور «تحرير المرأة» الذى ظهر فى عام ١٨٩٨ فأثار ضجة كبرى لايزال يتردد صداها حتى الآن فى المسلسل الذى رأيناه على شاشات التليفزيون.

ولكن الدراسات التاريخية الحديثة ترى أن تركيز الضوء على قاسم أمين فيه اجحاف لدور الصحافة النسائية التى ظهرت قبل سنوات من دعوة قاسم أمين لتثير قضايا المرأة ومشاكلها، ففى نوفمبر ١٨٩٢ أصدرت «هند نوفل» مجلة «الفتاة» فى الإسكندرية ، ووصفتها بأنها «الأولى من نوعها تحت سماء الشرق»، وإنها أصدرتها للدفاع عن حقوق المرأة والتعبير عن وجهة نظرها، ووعدت بأن تزين صفحاتها

بدرر أقلام النساء، وطلبت من بنات جنسها أن يتشجعن على الكتابة فى الصحف، ولايتوهمن أن مكاتبة الجرائد يحط من مقام العفاف أو يمس الطهر والأداب.

وكان صدور «الفتاة» باكورة سلسلة من المجلات العربية قامت بإنشائها نساء مثقفات حتى إذا قامت ثورة ١٩١٩ كان هناك ما يقرب من ثلاثين مجلة نسائية تطبع وتوزع داخل مصر وخارجها. وكانت هذه المجلات وقد ازداد انتشارها مع إنتشار المطابع تعنى بشؤون المرأة، وتطرح القضايا المتعلقة بها مثل الزواج والطلاق والحجاب والعزلة والتعليم والعمل. وعلى هذا تعتبر الصحافة النسائية مصدرا تاريخيا فريدا لرصد التحولات الإجتماعية التى شهدتها تلك الفترة. كما إنها سجل للكتابات النسائية التى أخذت طريقها للظهور على استحياء، إلى أن أشتد ساعدها وصار صوتها مدويا فى كافة الصحف والمجلات العامة وقد خصصت بعض ابوابها للثقافة النسوية.

عن دور الرعيل الأول من الصحفيات والكاتبات تقول الباحثة «بث بارون» فى كتابها «النهضة النسائية فى مصر» ترجمة لميس النقاش، إن الإنشغال بقاسم أمين وأتباعه أدى إلى التصور الخاطىء بأن النساء لم يقمن بدور إيجابى فى طرح قضية المرأة، فى حين وجدنا عددا من النساء شاركن فى الحركة المطالبة بحقوق المرأة فى فترة ما قبل الحرب العظمى «١٩١٤ ـ ١٩١٨» ومقالات ملك حفنى ناصف فى «الجريدة» شاهد على ذلك. والمفارقة الحقيقية ليست فى كون الرجال قد ساندوا أو عارضوا النضال من أجل المرأة، ولكن فى كون النساء اللاتى ناضلن

فى سبيل هذه القضية تم التعتيم عليهن، أو تجاهل وجودهن بالمرة، وانصب الاهتمام القليل على بضعة شاعرات وكاتبات نشرن أعمالهن فى الصحافة عندما ظهر قاسم أمين على الساحة، وفات على كثير من الدارسين التركيبة الثقافية الأوسع لقضية المرأة فى المجتمع المصرى، وتعقيدات القضية المطروحة بسبب تركيزهم على قاسم أمين.

ولذا - تقول الباحثة - أن البحث فى النهضة النسائية يتطلب النظر بعيداً عن هذا التركيز على ذاك العدد القليل من الرجال عن الصورة الكاملة التى حوت العديد من المثقفات المهمومات بالتفكير فى الادوار الاجتماعية والثقافية للنساء قبل بداية القرن العشرين، فقد كان لهن برامجهن للاصلاح، ومن هنا تأتى أهميتهن القصوى لفهمنا للجذور النسوية فى مصر، وبالتالى فى العالم العربى حيث تمثل مصر الدور القيادى فى المعركة من أجل حقوق المرأة.

إن البحث عن جذور الدعوة إلى الإهتمام بالمرأة يعود بالطبع إلى رائد الثقافة الحديثة رفاعة رافع الطهطاوى، فهو أول من تناول قضية وضع المرأة فى المجتمع وذلك فى كتابيه: «تلخيص الابريز» و«المرشد الأمين لتعليم البنات والبنين» الذى ظهر فى السنوات الأخيرة من حياة الطهطاوى، وأشار البعض إلى مجلة «اللطائف المصورة» لصاحبها شاهين مكاريوس وقد حملت لواء الأفكار النسوية فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر ورغم ذلك بقى التركيز على كتابات قاسم أمين على أنه الشخصية المحورية فى طرح قضية المرأة.

ولعل هذا التنقيب فى المصادر التاريخية ومن أهمها الصحافة النسائية، يبين لنا أن قاسم أمين لم يبدأ من نقطة الصفر ، وإنما بنى دعوته على اجتهاد من سبقوه . ولكن للأسف الشديد فإن المجلات النسائية التى ظهرت فى تلك الفترة قد اندثرت وتلاشت ولم يعد لها وجود فى دور الكتب أو المكتبات العامة، الأمر الذى يشكل صعوبة أمام الباحث عن أصول القضايا الإجتماعية، ومنها قضية المرأة وكفاحها فى سبيل حقوقها.

رسالة الزيات

يندر أن تجد مثقفا، عاش الثلث الوسيط من القرن العشرين، لم يتأثر بمجلة «الرسالة» سواء كان قارئا أو كاتبا أو روائيا. إذ كانت «الرسالة» هى المنبر الذى احتضن الثقافة العربية وأسبغ عليها ثوبا جديدا يناسب التحولات التى طرأت على المجتمعات العربية بعد اختلاطها بأوربا، وازدياد موجة التقريب، والدعوة إلى تقليد الغرب فى أساليبه الثقافية والإجتماعية. فكانت «الرسالة» فى الموقع الوسط بين التمسك بالقديم، والاعتدال فى الأخذ الجديد. ويرجع ذلك إلى شخصية مؤسس المجلة أحمد حسن الزيات، فقد جمع بين الثقافتين العربية والأوروبية.

نشأ أحمد حسن الزيات فى الأزهر حيث زامل طه حسين، لكنه أتصل بأحمد لطفى السيد، وكتب فى «الجريدة» ثم تطلع إلى أوروبا فسافر إلى فرنسا حيث أتقن اللغة الفرنسية.. وعمل الزيات فى صدر

شبابه بالتدريس، وسافر إلى العراق فى عام ١٩٢٩ حيث قضى هناك ثلاث سنوات عاد بعدها وقد سيطرت عليه فكرة إصدار مجلة للأدب الرفيع، ولم يكن أسمه فى ذلك الوقت يحمل من الذيوع والشهرة ما يسمح له بالاقدام على هذه الخطوة الجرئية، ولما كان الزيات عضوا فى لجنة التأليف والترجمة والنشر - وكانت تضم عمالقة الفكر والأدب - فقد أعلن الزيات عن صدور المجلة فى عام ١٩٣٣ باسم هذه اللجنة إلى أن أستقل بها بعد أن صار أسمه معروفا لدى جماهير المثقفين الذين أقبلوا على المجلة، لما وجوده فيها من وسطية بين القديم والجديد، والتراث والمعاصرة.

يقول الأديب على شلش فى كتابه عن «المجلات الأدبية فى مصر» أن الزيات ظل منذ البداية إلى النهاية معتدلا ونصيرا مخلصا لأربعة نجاحات فكرية متعايشة فى عصره هى: الإتجاه الوطنى. والإتجاه القومى العربى. والإتجاه الإجتماعى. والإتجاه الإسلامى.

وقد تفرغ الزيات لمجلته تفرغا كليا، فلم يجمع بينها وبين عمل آخر، وكان يعقد فى دارها ندوة عصر يوم صدورها، وهو الأثنين يحضرها لفيف من كتابها وقرائها.

أما أسلوبه فى إدارة شؤون المجلة، فكان يمثل العمود الفقرى، والمعلم الأوحد، والرائد الموجه، يشرف عليها من ناحية الإدارة والتحرير والتوزيع ويعرف كل صغيرة وكبيرة عن حساباتها وأرباحها وخسائرها، ويوجه دفة الأمور فيها ، بل يصحح «بروفاتها» ويعدها للطبع، ويجدد فى أبوابها وطرق إخراجها ، وهكذا استمرت «الرسالة» توالى الصدور

بانتظام نحو عشرين عاما بفضل التدبير المحكم الذى شمل جميع النواحى الأدبية والصحفية والمالية، وكان الزيات فى الوقت نفسه حريصا على انتقاء المادة الصالحة ولايعبأ بمن يهاجمونه إذا منع نشر إنتاجهم.

وكان الزيات - كرئيس للتحرير - يتمتع بتلك الحساسية الخاصة التى لابد من توافرها فى رئيس التحرير المتميز إزاء عصره وأحداثه وأساليبه ورجاله، وهى الحساسية التى تمكنه - كما يقول على شلش - من الحكم الذكى على المادة المقدمة له، بغض النظر عن رأيه الشخصى فى الموضوع أو الكاتب، وكذلك تمكنه من معرفة النبض الحقيقى للعصر، وهى أيضا الحساسية التى مكنت الزيات من أن يقترح على توفيق الحكيم تدوين ذكرياته المنسية عن فترة اشتغاله بالقضاء والنيابة، فكتب الحكيم «يوميات نائب فى الأرياف» ونشرها الزيات مسلسلة فى مجلة «الرواية» عند صدورها فى عام ١٩٣٧ بعد اربع سنوات من ولادة مجلة «الرسالة» وهى ايضا الحساسية التى مكنت الزيات من الاستجابة لروح العصر، والكتابة شبه الدائمة عن الفقر والإصلاح والوحدة العربية. واحتمال عنف المعارك الادبية ايمانا منه بحرية الرأى.

جانب آخر فى شخصية الزيات تنبه اليه على شلش، وهو ان عمل رئيس التحرير ليس فقط قراءة مواد العدد وكتابة المقال الافتتاحى، وانما عمله كذلك هو ان يساهم فى التحرير بأية صورة اخرى اذا لزم الأمر، فكثيرا ما كان الزيات يعرض الكتب ويعرف بها، او يعلق على

المقالات المنشورة فى المجلة، او على بريد القراء، وكثيرا ماكان يترجم القصص لمجلة «الرواية» ويؤلف لها القصص ايضا.

اما مقالات الزيات فى افتتاحيات «الرسالة» فقد جمعها فى عدة كتب مثل: وحى الرسالة وفى ضوء الرسالة ودفاع عن البلاغة، وهذه الكتب تمثل المحصول الفكرى لاحمد حسن الزيات، وتتسم مقالاته بالنظام والوضوح اكثر مما تتسم بطموح الفكرة، وكان اسلوبه فى ذلك شديد التلاؤم لا تحس منه ذلك التوتر بين اللفظ والمعنى وبين اللغة والكاتب، الذى يميز الارواح القلقة، وكما لاحظ الناقد الدكتور شكرى عياد كان الزيات شديد الاناه، آمن بالتطور، ودعا اليه وعمل له مدرسا ومفكرا وكاتبا ومجمعا، ولولا ان شكل المقالة قد استأثر معظم انتاجه - وهو شكل عميق الجذور فى التراث لكان تحديده اظهر لعامة القراء، ومع ذلك فان فكرة «التغير» تتردد فى كل ما كتبه.. ولاسيما التغيير بمعناه الاصلاحى.

جامعة الأدب العربى

كانت «الرسالة أطول المجلات الثقافية عمرا، فقد عاشت عشرين عاما وخمسة أسابيع، فى حين عاشت قرينتها وتوأمها «الثقافة» أربعة عشر عاما، و«المجلة الجديدة» التى كان يصدرها سلامة موسى أحد عشر عاما وثمانية أشهر. و«مجلتى» لأحمد الصاوى محمد عشر سنوات وخمسة أشهر، وهناك مجلات أدبية متخصصة لم يطل بها العمر أكثر من بضع شهور. وكلها كانت تصدر فى فترة الثلاثينيات والاربعينيات من القرن العشرين.

ويعزو نقاد الصحافة طول حياة الرسالة، الى أن صاحبها أحمد حسن الزيات كان واعياً بالدور الذى تقوم به المجلة الى حد بالغ ودائم، وهو أول من درس دور مجلته حين تخطت سنواتها الاولى، فقد تابع نموها فى افتتاحياته السنوية سنة بعد سنة، وفى افتتاحية العام السابع «١٩٤٠»

استهلها بالحديث عن «السبعة» فى عقيدة الشرقيين كعدد يدل على الكمال واليمن والكثرة، ثم قال: الرسالة وليدة الفكر المستقل فى نهضتنا الحديثة، تلقت امشاجه ونفذت على انتاجه، ورقت على أسباب ورقيه، فلو أنها كانت للعامة لقتلها ملها، أو كانت للسياسة لأصابها فشلها، ولكنها كانت للفكرة الحرة التى ترود، ثم تقود ثم تهيمن، فإن شئت قلت هى الروحية فى هيكل الوطن وإن شئت قلت هى الإنسانية فى معنى الامة». ثم اشار الزيات الى سابق تكراره من أن «الرسالة» أصبحت فعلا من فصول الادب العربى الحديث، بل هى ديوان العرب المشترك.

وكتب الزيات ايضا فى افتتاحية العدد رقم «١٠٠٠» من المجلة قبل شهور من توقفها وكأنه يكتب سطور نعيها، وبلاغ وفاتها:

«ولو كانت الرسالة اليوم بسبيل أن تكشف عن قلبها، وأن تتحدث بنعمة ربها، لذكرت فيما تذكر بلائها العظيم فى إنهاض الأدب، وتوحيد العرب، وتخريج طبقة من الادباء وتثقيف أمة من القراء، بل مجاهدتها السلطان الباغى، والثراء الطاغى، والفقر المهلك، ولكنها ترى ذلك من لغو الحديث مادام - وحى الرسالة - منشورا وأعداد المجلة محفوظة.. ولعل السر فى بقائها الى اليوم على ضعف وسيلتها، وقلة حيلتها أنها عفت عن المال الحرام، فلا تجد لها اسما فى المصروفات السرية ولا فعلا فى المهاترات الحزبية، ولا حرفا من الاعلانات اليهودية».

ويتحفظ الناقد الدكتور على شلش على العبارة الاخيرة الخاصة بالتعفف عن نشر الاعلانات اليهودية، ويثبت أن «مجلة الرسالة» لم

تخل من اعلانات المحلات اليهودية - على عكس ماذكر الزيات - ولاسيما فى سنوات الحرب العالمية الثانية، اذ كانت تنشر إعلانات محلات شيكوريل وأوركو فى التهنئة بعيد الفطر - على سبيل المثال - خلال عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٣ .

وإن كنت أرى فى ذلك مبالغة من جانب الزيات فى تعففه عن نشر اعلانات المحلات اليهودية، ومبالغة فى تحفظ الدكتور شلش على شهادة الزيات، فلم تكن هذه المحلات - المملوكة لليهود - تدرج فى قائمة الجبهة المعادية للعرب فى ذلك الوقت، ولم تكن القضية الفلسطينية قد تفجرت على النحو الذى حدث فى نهاية الاربعينيات ولم تكن اى صحيفة مصرية أو عربية تجد حرجا فى الحديث عن اليهود باعتبارهم مواطنين يحملون جنسية الوطن العربى الذى يعيشون فيه، وأغلب ظنى أن الزيات لم يكن ليكتب هذه العبارة إلا بعد ان اندلعت الحروب والصدمات الدامية بين العرب والحركة الصهيونية أما قبلها فلم يكن هناك وجه للاعتذار أو التعفف عن نشر اعلانات تهنئة فى مناسبة دينية.

والمهم فى التاريخ لمجلة «الرسالة انها استطاعت - كما يقول الدكتور محمد شكرى عياد - خلال عشرين سنة أن تكون مدرسة للأدب تدخل كل مدينة وقرية فى أربعة أركان العالم العربى، ويضعها فى يمينه كل شاب يحلم بأن يغدو يوما ذا شأن فى دنيا الكتابة، وقد شاع القول بأن هذه السنين العشرين - من ١٩٣٣ الى ١٩٥٣ - كانت أقرب الى التطور الهادئ على حد قول بعض الكتاب، أو الجمود، على قول آخرين من

الفترة التى سبقتها، أو هذه التى تلتها، ولعل الصحيح أنها لم تشهد حركة أدبية جديدة ذات خطر، بل إن كل أنواع التطرف فى المذاهب الادبية ـ مما عرف فى الربع الاول من القرن العشرين ـ قد خفت حدته، وأخذ بعضها يندمج فى بعض، وكان الحديث عن اتجاه جديد فى الكتابة أشبه بالهمس، لهذا كانت الرسالة «مدرسة للأدب» ولم تكن «مدرسة أدبية» ولهذا كانت مجلة العصر بأتم معانى هذه الكلمة.

هذا ما يقوله الناقد الادبى الكبير محمد شكرى عياد عن القيمة الأدبية لمجلة «الرسالة» اما الدكتور زكى مبارك فقد روى أن طالبا فى الجامعة كتب له قائلا ان المحصول الادبى فى مجلة «الرسالة» فى العام ١٩٤٢ قد استهواه واغراه بالانتقال من قسم اللغة الانجليزية الى قسم اللغة العربية بكلية الآداب، وروى الناقد عباس نصر ـ وهو أحد أركان المجلة ـ أن إعدادها للصدور كان يتم مساء السبت، وتصدر الى السوق يوم الأحد حاملة تاريخ الاثنين كباقى المجلات «ولابد أنها كانت تصل الى الشقيقات العربية، أو على الاقل الى سوريا يوم الاثنين، فقد كان إخواننا السوريون يحدثوننا بأنهم يعدون أيام الاسبوع هكذا: السبت، الاحد، الرسالة، الثلاثاء.. الخ» كما روى خضر ان الرسالة «كانت جامعة عربية قبل أن تنشأ جامعة الدول العربية، بل كانت أكثر ففعالية وأبلغ تأثيرا» وروى صاحبها من قبل أنها «استطاعت فى مدى عشرين عاما ان تنشئ جيلاً من الكتاب والشعراء لهم أثرهم القوى وأن تنشئ مدرسة فى الأدب لها طابعها الخاص، وأن تعرف أدباء العرب بعضهم

لبـعض على انقطاع الاسـبـاب، وتبـاعـد الديار، وأن تجـمع القلوب والشعوب على فكرة واحدة، وغاية مـعلومة، وأن تكون سفيرا روحيا لمصر فى جميع البلاد العربية والاسلامية».

ويضيف على شلش: من الممكن إجمال القيمة النهائية للرسالة: فى أنهـا كـانت جـامـعـة حـرة، عـملت على تقـريب الادباء الى عـصـرهم بمنجزاته الكبيرة فى العلوم والفنون كما عملت على تقريبهم الى بيئتهم بمشكلاتهم وتحدياتها الهائلة، وفى جامعة الرسالة الحرة هذه - اذا صح التعبير - اتصلت أجيال الادباء على مستوى الوطن العربى الكبير وتفاعلت وعبرت عن همومها، ونقلت آثارا من اللغات الاخرى، ووصلت القديم بالجديد.

التوأمان

لا تُذكر مجلة «الرسالة» إلا ويذكر معها توأمها «الثقافة» التى أصدرها العلامة أحمد أمين فى الثالث من يناير ١٩٣٩، وعاشت المجلتان طوال الاربعينيات مثل فرسى رهان فى حلبة السباق على خدمة الأدب والعلم والتنوير والابداع واكتشاف المواهب، وإذا كانت خطة «الرسالة» كما أوضحها الزيات فى العدد الأول هى أن تقاوم طغيان السياسة بصقل الطبع، وبهرج الأدب بتثقيف الذوق، وحيرة الامة بتوضيح الطريق، وأن مبدأها: ربط القديم بالحديث، ووصل الشرق بالغرب، ووجهتها الاحياء والتجديد مع العناية بالشباب.. فقد كانت خطة «الثقافة» كما عبر عنها أحمد أمين هى: عرض ما فى الشرق والغرب من كنوز الادب والعلم، وتحتاج جميعها إلى من يكشف عنها ويجلوها، بعد أن أصبح الشرق مرتبطاً بالغرب ارتباطاً وثيقاً فى كل مرفق من مرافق الحياة، مع العناية بحرية الرأى وجديته.

ومن دواعى اعتزازى أن مكتبتى الخاصة تكتنز مجلداً يضم الاعداد الأولى من مجلة «الثقافة». وكنت أميل إليها أكثر من ميلى «للرسالة» والسبب فى ذلك تلك العلاقة الروحية التى ربطت بينى وبين أحمد أمين منذ كنت تلميذاً فى المرحلة الابتدائية وكان مدرس اللغة العربية من المشايعين لأحمد أمين، فيملى علينا فى كراسة الاملاء مقتطفات من «وحى الخاطر» التى يكتبها أحمد أمين فى مجلة «الثقافة»، ثم جمعت فيما بعد فى عشرة مجلدات تحتل مكاناً أثيراً فى مكتبتى، ورغم أن هذه القطع الاملائية كانت فوق مستوانا العقلى إلا أن هذا المدرس الجليل كان يتعمد ذلك حتى يسمو مستوانا إلى آفاق عليا من حيث الثقافة والمعرفة، والتطلع إلى تلك القمم الشامخة. وكذلك كانت حصة المطالعة الحرة فى غرفة المكتبة من بين العوامل التى ربطتنى بأحمد أمين، فحين خيرت بين قراءة قصة «على بابا والاربعين حرامى» وكتاب «زعماء الاصلاح» لأحمد أمين.. نفرت من الأول رغم أنه مقتبس من قصص الف ليلة وليلة، وعكفت على الثانى، ومنه اهتديت إلى سير عظماء الرجال الذين قادوا حركة الاصلاح السياسى والاجتماعى والدينى فى العالم العربى الحديث مثل رفاعه الطهطاوى والنديم ومحمد عبده ومدحت باشا.

كانت مجلة «الثقافة» أقل ذيوعاً وانتشاراً من مجلة «الرسالة»، ويعزو مؤرخ المجلات الادبية الدكتور على شلش ذلك إلى سوء حظ «الثقافة» فى أنها صدرت عشية إندلاع الحرب العالمية الثانية «سبتمبر ١٩٣٩» منذ فاجأتها الحرب قبل أن تستقر وترسخ مثل زميلتها «الرسالة». ولولا جهاد لجنة التأليف والترجمة والنشر للابقاء عليها

لتعرضت للتوقف كغيرها من المجلات التى أوقفتها الحرب، ومع ذلك فقد تركت الحرب بصماتها على المجلة طوال سنواتها الاربع عشرة، وتمثل ذلك فى عدم انتظام أبوابها، وخفة مواردها، وانزواء نصيب الادب فيها أمام انصبة اهتماماتها الأخرى، وتنقل كتابها بين المجلات الأخرى.

ورغم هذه المعوقات قدمت «الثقافة» خلال حياتها العديد من ألوان الادب العالمى بالتعريف والعرض والترجمة، حتى ليمكن القول بأن نصيبها فى هذا المجال قد تفوق على أنصبة زميلاتها الأخريات، ولم تقتصر فى ذلك على الآداب المشهورة مثل الانجليزية والفرنسية والايطالية والروسية التى أقبلت عليها المجلات الأدبية الأخرى، وإنما توسعت فى آداب أمم أخرى مثل الهند وفارس وتركيا والصين وألبانيا وألمانيا، كما توسعت فى التعريف بالمسرح العالمى، واهتمت - فى الوقت نفسه - وبشكل مبكر، بأدب الرحلات والأدب الشعبى، وأدب الاطفال، وكانت دراساتها من العمق بحيث اجتذبت الكثيرين من الأدباء المتخصصين، فضلاً عن بحوثها الرائدة فى الفلسفة الحديثة والنقد الأدبى الحديث والتربية.

وينطبق على «الثقافة» ما ذكره الباحثون حول «الرسالة» فيما يتعلق بالأثر من حيث مساهمتها فى إقامة جو من الارتباط الروحى والفكرى بين الأجيال المختلفة من الكتاب، والانفتاح على البلاد العربية، وكونها سجلاً مكملاً لتاريخ الأدب ودراسته فى عصرها، وتشجيعها للأدب والنقد والنقل عن الآداب الأخرى، ومساهمتها فى

التيارات المعاصرة لها: وطنية وعربية وإسلامية واجتماعية ومساهمتها البارزة فى مجال العلوم الاجتماعية، فضلاً عن تجميع العديد من الكتب مما نشرته على صفحاتها مثل فيض الخاطر وزعماء الاصلاح لأحمد أمين، وقطوف للشيخ عبد العزيز البشرى، وفى الميزان لمحمد مندور والمصريون المحدثون للانجليزى إدوار لين، وساعات السحر لأحمد زكى، وشروق من الغرب لزكى نجيب محمود، وزنوبيا وسيف بن ذى يزن لمحمد فريد أبو حديد، وعشرات غيرها.

وبذلك تكون «الثقافة» قد التزمت بخطتها - مثل الرسالة - ونجحت فى تحقيق وظيفتها بهذا المعنى، ثم هى فى النهاية - كما يقول على شلش - مكملة لعمل «الرسالة» من جميع النواحى، وكان إقبالها على العلوم الانسانية بصفة خاصة - وبطريقة منهجية - مكملاً لدور «الرسالة» فى الاطلال على هذه العلوم بل وكانت «الثقافة» أبرز من زميلتها فى التأصيل والتنظير بحكم خبرة كتابها، وتخصصاتهم الجامعية، على حين كانت «الرسالة» أبرز فى الابداع والخلق الادبيين ومع ذلك فكل منهما تكمل عمل الأخرى بكونهما جامعتين حرتين.

الرسالة الجديدة

بعد عام تقريباً من توقف مجلة «الرسالة» لمؤسسها وصاحبها أحمد حسن الزيات، ظهرت فى سوق الأدب مجلة تحمل اسم «الرسالة الجديدة» تختلف عن المجلة الأم من حيث المظهر والجوهر، فقد اكتست ثوباً جديداً فى أوراقها ورسومها وصورها، فكانت أقرب إلى المجلات السيارة التى اغترقت من فنون الطباعة الحديثة. وبينما كان غلاف «الرسالة» لا يحمل سوى أسمها مطبوعاً على صفحة ذات لون واحد، كان غلاف المجلة المستنسخة حافلاً بالصور والرسوم الملونة، وكذلك صفحاتها الداخلية. أما من حيث المضمون فقد حرصت على اجتناب الدراسات الادبية الغليظة بعد أن صارت عسيرة الهضم على أمعاء القارىء الحديث الذى كان يبحث عن وجبة خفيفة تناسب ظروف عصره.

وبعد أن كانت «الرسالة» القديمة تقوم بجهد فردى من صاحبها، صدرت «الرسالة الجديدة» عن جهاز من الأجهزة الصحفية التى أقامتها ثورة يوليو حتى يكون لها موضع قدم فى حقل الاعلام الصحفى فصدرت جريدة «الجمهورية» فى عام ١٩٥٣ تحت الاشراف المباشر لأحد قادة الثورة، وهو أنور السادات، وقد تصدر اسمه ترويسة المجلة الجديدة كمدير عام لها، أما رئاسة التحرير فقد عهدوا بها إلى الأديب يوسف السباعى الذى ترك موقعه فى سلاح الفرسان ليشغل منصب الأمين العام للمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب، وهو منصب يتفق مع ميوله الأدبية، وانتسابه إلى فئة الضباط فى آن واحد، أما سكرتارية التحرير فقد تولاها عبد العزيز صادق وهو ضابط جيش سابق.

وليس معنى ذلك أن «الرسالة الجديدة» اكتست ثوباً ثورياً أو سياسياً فالواقع إنها كانت أدبية صرفة، وإن اتسمت بالخفة والبساطة وعدم الاغراق فى الدراسات العميقة التى كانت من سمات الصحافة الأدبية فى الجيل السابق. وكانت تأخذ من الصحافة العامة فنونها الحديثة مثل التحقيق الصحفى الذى يدور حول قضية من قضايا المجتمع، أو الحديث الصحفى مع مشاهير الفن والأدب، ومن أشهرها الحديث الذى أجراه عبد العزيز صادق مع عباس محمود العقاد ونشره تحت عناوين مثيرة مثل «دعاة الادب فى سبيل الحياة شيوعيون يتلقون التعليمات من موسكو» و «سلامة موسى يهاجم اللغة العربية لعدم دخوله المجمع اللغوى» و «أين الاديب الذى يمكن أن يفصل عباس العقاد».

وعلى صفحات «الرسالة الجديدة» طالعنا أسماء أدباء ونقاد وروائيين كانوا يشقون طريقهم نحو الشهرة مثل محفوظ عبد الرحمن وغالى شكرى. وفى نفس الوقت تطالعنا دراسات نقدية لأعمال كبار الباحثين وكتاب القصة مثل: «أين عمرى» لإحسان عبد القدوس و «أرخص ليالى» ليوسف ادريس، و «نائب عزرائيل» ليوسف السباعى، و «المسيح عيسى بن مريم» لعبد الحميد جودة السحار، ومقالات عن الجيل السابق مثل النديم ومطران وشوقى وعزيز فهمى وإيليا أبو ماضى وجبران ومى زيادة، وعلى محمود طه، كما قرأنا أول دراسات صحفية عن الوجودية بقلم أنيس منصور. أما أروع انجازات مجلة «الرسالة الجديدة» فقد نشرت الفصول الأولى من رائعة نجيب محفوظ: «بين القصرين» وكانت تنشر مسلسلة.

لقد أعادت الهيئة المصرية العامة للكتاب طبع مجلة «الرسالة الجديدة» جريا على عادتها فى إعادة طبع المجلات الأدبية، مما جعلها فى متناول يد القارىء الحديث. وأتاح له فرصة الاطلاع على المنجزات الأدبية والنقدية للأجيال السابقة، وفى مناسبة صدور المجلد الأول من «الرسالة الجديدة» كتب الدكتور ماهر شفيق فريد أستاذ النقد بجامعة القاهرة دراسة عن القيمة الصحفية لهذه المجلة، وموقعها فى حقل الصحافة الأدبية، فوصفها بأنها كانت حلقة وصل بين صحافة الاربعينات والخمسينات من جهة، وصحافة الستينات وما أعقبها من جهة أخرى، وقال إنها عبرت عن نبض أدبى جديد كانت التربة الثقافية تنضح به، وتختلج إلى أن انبثق وأتى ثماره وتبلورت ملامحه فى عقود تالية.

واستطرد الدكتور ماهر قائلاً: ولأن القدر الأكبر من ثروتنا الأدبية إنما نشأ فى هده الصحافة الأدبية وعرف وجوده فى صفحاتها ـ كما يقول رئيس تحرير سلسلة صحافتنا الأدبية «وأعتقد أنه يعنى المرحوم الدكتور على شلش» فاننا نتطلع إلى طبع باقى مجلدات «الرسالة الجديدة» فى زمن قريب، ونتمنى لو كانت الخطوة التالية هى إعادة طبع المجموعات الكاملة لثلاث مجلات من عقدى الخمسينات والستينات وهى: «أدب» التى كان يصدرها شيخ الامناء أمين الخولى و «المجلة» التى تعاقب على تحريرها أساتذة أجلاء، ولكنها بلغت أعلى نقطة لها فى عهد يحيى حقى، و «الفكر المعاصر» التى كان يحررها مفكران كبيران هما الدكتور زكى نجيب محمود، والدكتور فؤاد زكريا، فهذه المجلات الثلاث وثيقة لا غنى عنها لمن أراد درس الابداع الأدبى والفكر النقدى للنصف الثانى من القرن العشرين.

ومن دواعى فخرى واعتزازى أن رفوف مكتبتى تحتوى معظم أعداد المجلات التى أشار إليها الباحث ماهر شفيق باستثناء مجلة «الأدب» ولن أنسى الساعات الجميلة التى كنت أقضيها بين صفحات هذه المجلات لأرتشف منها رحيق الثقافة والمعرفة، وعندما يشدنى الحنين إلى التزود من معين الثقافة الرصينة فإننى أعود إلى هذه المجلات العزيزة، أنفض عنها غبار السنين وألقى بنفسى بين أحضانها، وأستعيد ذكرياتى الخوالى عندما كنت أجد المتعة الحقيقية، والزاد الصافى الرقيق الذى صاغته عقول كبيرة، ودبجته أقلام جبارة سنظل نحمل لها كل تقدير واحترام.

كارثة الكوارث

تظل واقعة تأميم الصحافة المصرية فى مايو ١٩٦٠ مثار تساؤلات عن البواعث التى دعت جمال عبد الناصر إلى إتخاذ هذه الخطوة الخطيرة التى جعلت من الصحافة أداة تابعة للدولة، ومن الصحفيين موظفين يتعرضون للفصل والنقل والتشتيت، وسبق أن ذكرت فى مقال سابق أن من مسببات التأميم حكاية «إختفاء أجمل سيدة فى مصر»، فصارت حديث الناس، وشغلتهم عن الالتفاف حول إنجازات الثورة كما يريد عبد الناصر، فكان التأميم.

●● ولم يكن هذا هو السبب الأصلى. بل كان مجرد حجة استغلها عبد الناصر لتبرير قراره، لأن مسألة التأميم كانت قد اختمرت فى ذهنه منذ وقت مبكر، ولم يبق سوى تحين الفرصة المناسبة، وكانت حكاية السيدة إياها هى عود الثقاب الذى أشعل الحريق ضد الصحافة.

●● قبل شهر من التأميم: قرأ جمال عبد الناصر مقالاً لإحسان عبدالقدوس يدعو فيه إلى تأميم الصحافة لدوافع ذاتية بحتة، فقد كانت دار روز اليوسف تتعرض لأزمات مالية خانقة، ورأى إحسان فى نقل ملكية الدار إلى الدولة: المخرج الوحيد من الأزمة، ويقول إحسان: «وقرأ جمال عبد الناصر المقال المنشور فى إبريل ١٩٦٠، وأخذ عنه أربعة سطور فقط وأصدر بها «قانون تنظيم الصحافة فى ١٤ مايو ١٩٦٠.. واتصل بى الدكتور عبد القادر حاتم، وأبلغنى أن عبد الناصر أخذ من مقالك وأمم الصحافة، وأنت حتكون رئيس مجلس إدارة مؤسسة روز اليوسف، فكنت رئيس مجلس الادارة الوحيد الذى عين من أصحاب الصحف التى شملها قرار التأميم، وأنا اعتبر أن روز اليوسف هى الوحيدة التى استفادت من تأميم الصحافة فى مصر كلها، ولولا التأميم كانت روز اليوسف أفلست».

●● يمكن اعتبار مقالة إحسان عبد القدوس عنصراً شجع عبد الناصر على أن يعجل بتوجيه ضربته، لأن نية التأميم كانت مستقرة فى نفس عبد الناصر قبل سنوات، ويفهم من شهادة محمد حسنين هيكل فى كتابه (بين الصحافة والسياسة) أن الموقف من ملكية الصحف كانت موضع مناقشات بينهما منذ قيام الثورة، ولم يكن عبد الناصر راضياً عن بقاء الصحف تحت ملكية أصحابها.

●● يقول هيكل: وفى بعض الأحيان كنت أستطيع أن أفهمه، ولكنى لم أكن أتصور فى نفس الوقت أن تتحول الصحف من ملكية الإفراد أو العائلات إلى ملكية الدولة، فقد بدت لى تلك كارثة الكوارث، ولم يكن

هناك حل وسط، وأعتقد بأمانة أننى وقفت فى الفترة ما بين سنة ١٩٥٦ إلى ١٩٦٠ وحدى تقريباً فى محاولة الدفاع عن «الواقع الراهن فى الصحافة» حتى لو أدى الأمر إلى بقاء ملكية الأفراد والعائلات، فقد بدا لى ذلك أهون الضررين وأخف الشرين، وكان للثورة وقائدها والتنظيم السياسى (الاتحاد القومى) ورجاله رأى آخر. ثم جاءت ظروف وتحولات.

●● ويستطرد هيكل قائلاً: دعانى جمال عبد الناصر إلى بيته، وجلسنا معاً لواحدة من أصعب مقابلاتنا، قال لى إنه مهما كانت آرائى فى موضوع الصحافة، فهو الآن وصل إلى إقتناع كامل بأنه لا يستطيع أن يترك الأمور كما هى، واستدرك ـ أى عبد الناصر ـ يقول: لا تتصور أننى أريد أن أتخلص من أحد، لو أردت ذلك فأنت تعرف أن لدى من الشجاعة ومن السلطة ما يسمح لى بأن أقول له إذهب إلى بيتك، ثم إنك ترى أن الكل يتسابق إلى التأييد أحياناً بأكثر مما أريد، لكن القضية أكبر من ذلك.. إننا مقبلون على تحولات اجتماعية كبيرة، وقد بدأت بتأميم البنك الأهلى وبنك مصر، إذا كنا نريد حقاً تنفيذ خطة للتنمية، وإذا كنا نريد إجراء تحولات إجتماعية عميقة فى مصر: فلا بديل عن سيطرة المجتمع على وسائل المال والانتاج، ولا أستطيع عقلا ولا عدلاً أن أفرض سيطرة المجتمع على الاقتصاد، ثم أترك مجموعة من الأفراد يسيطرون على الاعلام، ثم استدرك عبد الناصر قائلاً: إنهم لا يسيطرون الآن عملياً لأن الثورة قوية، وذلك مجرد خوف، وأنا لا أثق فى خائف، خصوصاً إذا تغيرت الظروف، ثم إن المرحلة الجديدة من

التحول الاجتماعى تحتاج إلى تعبئة شاملة، وأعرف أن الموجودين سوف يصفقون لأى قرار، لكن المطلوب شىء آخر غير التصفيق..

●● يقول هيكل أنه قال لعبد الناصر: إن خشيتى فى الواقع على المهنة، وكان رد عبد الناصر: فكر فى أية ضمانات تريدها للمهنة، على أن نلتقى غداً وسيكون معنا المستشار محمد فهمى السيد (المستشار القانونى لرئاسة الجمهورية وعديل عبد الناصر).

وفى اليوم التالى تم الاجتماع. ويقول عنه هيكل: حاولت خلاله بكل ما أستطيع، وربحت بعض النقط، وخسرت بعضها الآخر، ربحت عندما استطعت استبعاد منطق التأميم بحدوده القاطعة، ووصلنا إلى صيغة أخرى تسمح بمرونة، فكان «تنظيم الصحافة» وليس «تأميمها».

●● هناك قصة أخرى تضاف إلى مقدمات التأميم، يرويها حلمى سلام لرشاد كامل ونشرها فى كتابه (ثورة يوليو والصحافة) وتدور حول مجلة «بناء الوطن» التى كانت تصدر عن مجلس الثورة، ويرأس تحريرها الصاغ أمين شاكر مدير مكتب جمال عبد الناصر، وتطبع فى دار الهلال، وتعثرت فى دفع تكاليف الطباعة حتى تراكمت عليها ديون قدرها عشرة آلاف جنيه، فأمر إميل زيدان - صاحب الدار - بمنع طبعها إلا بعد تسديد الدين كاملاً، وذهب أمين شاكر إلى جمال عبد الناصر وأبلغه بالقرار، فأمر بتحرير شيك بخمسة آلاف جنيه، ولكن زيدان رفض، وصمم على دفع المبلغ كاملاً ونقداً.. لا ينقص مليم واحد، وغضب عبد الناصر ورأى فى هذا التصرف تحدياً للثورة، فطلب تجريد حملة للاستيلاء على دار الهلال، ولكن بعض المحيطين به

نصحوه بالتريث حتى لا يساء فهم القرار على أن المقصود منه دار الهلال بالذات لأن أصحابها ذوى أصل لبنانى، وكان جواب عبد الناصر: إذن المؤسسات الصحفية كلها.. وكان قرار تأميم المؤسسات الصحفية الكبرى: الأهرام، أخبار اليوم، الجمهورية، روز اليوسف، دار الهلال.

أبو الخير نجيب

تعرفت إلى الصحفى الكبير المرحوم أبو الخير نجيب فى حديقة نقابة الصحفيين خلال عام ١٩٨٢ وهو على أعتاب الثمانين من عمره، وكانت فرصة ذهبية لى أن أجلس إلى هذا الصحفى المخضرم الذى أثار من حوله جدلاً بين المشايعين له، والناقمين عليه، وإن بقيت صورته المطبوعة فى ذهن أبناء جيلى ملوثة بما لحق به من تهم شنيعة تضمنها حكم محكمة الثورة عليه فى مارس ١٩٥٤ . إذ دمغته المحكمة بالخيانة ونزعت عنه شرف المواطن، وهو حكم بالغ القسوة يتضاءل إلى جانبه الحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة (١٥) عاماً، قضى منها (١٢) سنة ثم أفرج عنه فى عام ١٩٦٦ ليواجه العزلة وشظف العيش، إلى أن لقى حتفه قتيلاً تحت عجلات باص أمام بوابة نقابة الصحفيين أثناء ذهابه إليها لشراء كيلو من اللحم المدعوم بثمن زهيد فى ١٣ ابريل ١٩٨٣ .

● بدأ أبو الخير حياته الصحفية معتمداً على موهبته وثقافته الشخصية، وتنقل بين صحف ومجلات كثيرة إلى أن أصبح رئيساً

لتحرير مجلة (مسامرات الجيب) ثم رئيساً لتحرير جريدة (النداء) التى كان يصدرها ياسين سراج الدين إلى جانب عمله محرراً فى (الاهرام). واشتهر بمقالاته النارية ضد القصر الملكى والحاشية والطبقة الحاكمة والاقطاع، والمطالبة بالعدالة الاجتماعية والديمقراطية، ثم خطر له أن يصدر صحيفة خاصة به دون أن يكون لديه المورد المالى للانفاق عليها، فاتفق مع صديق له من أثرياء الريف على تمويل المشروع، وأطلق على جريدته اسم (الجمهور المصرى) واتخذ لها شعاراً (الدعوة إلى القوة).

● صدر العدد الأول من هذه الصحيفة فى الثامن من يناير ١٩٥١ وسرعان ما لقيت رواجاً شعبياً بفضل مناخ الحرية الذى وفرته حكومة الوفد للصحافة، وبسبب سخونة الموضوعات التى طرحتها، وكان أول اهتماماتها الهجوم على الاحتلال البريطانى، خاصة بعد اشتعال المقاومة ضد قوات الاحتلال فى قناة السويس بعد الغاء معاهدة ١٩٣٦ ونشرت الجريدة فتوى شرعية باستباحة دماء الانجليز وعتادهم وأموالهم، وأكدت بذلك الفتوى التى أصدرها شيخ الأزهر - إبراهيم حمروش - بشرعية مقاومة المغتصبين، وخصص أبو الخير نجيب من أموال الجريدة مبلغ ألف جنيه مكافأة لمن يقتل الجنرال «أرسكين» قائد القوات البريطانية، وأصدر شيكاً بذلك على أحد البنوك، ونشر صورة الشيك فى صدر جريدته، وخصص مائة جنيه مكافأة لكل فدائى يقتل ضابطاً انجليزياً، وقد أثار هذا الاعلان غضب الحكومة البريطانية فتقدمت بأحتجاج شديد اللهجة إلى الحكومة المصرية باعتبار أن ما نشرته «الجمهور المصرى» عمل إجرامى يعاقب عليه القانون، وطالبت باغلاق الجريدة ومحاكمة صاحبها، إلا أن الحكومة المصرية رفضت

هذا التدخل، وأكدت أن الصحافة المصرية لا سلطان عليها، وعندئذ أبلغت السفارة البريطانية النيابة العامة ضد أبو الخير نجيب، وفي التحقيق دفع الكاتب بأن التحريض على قتل المحتلين أمر مباح لأنه داخل في نطاق حق الدفاع الشرعي عن النفس، مما أدى إلى حفظ التحقيق.

●● وامتد نشاط الجمهور المصري إلى القضايا الاجتماعية، فعملت على زرع بذور الثورة الاجتماعية بين العمال والفلاحين ضد الاقطاع والرأسمالية، وتفاتيش الأمراء والنبلاء وأفراد البيت المالك، وشنت حملات على البوليس السياسي، وتعذيب المسجونين السياسيين، وهاجمت حكومة الوفد وخاصة فؤاد سراج الدين وزير الداخلية.

●● وإلى جانب هذه الاهتمامات السياسية والوطنية: أفردت «الجمهور المصري» مساحات واسعة لنشر الجرائم الخلقية، والفضائح، مما أثار استياء بعض الافراد والهيئات، فطلبوا من إدارة المطبوعات وقف هذا اللون ـ حماقة الاثارة الذي يقصد به ترويج الجريدة وزيادة توزيعها.

●● ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو هلل لها أبو الخير نجيب، وأطلق لقلمه العنان مطالباً باستخدام كل أساليب العنف ضد رجال العهد البائد، وتحريض قادة الثورة على الضرب بيد من حديد على كل الذين شاركوا في الحياة السياسية في فترة ما قبل الثورة، ومحاكمتهم أمام محاكم استثنائية، وأخذ يعزف على هذا المنوال، إلى أن وقع الصراع بين الأجنحة الثورية فيما يعرف بأزمة مارس ١٩٥٤، وهنا افتقد أبو الخير نجيب الرؤية الرشيدة، فانقلب على الثورة من حيث مبدأ قيامها،

وقال إن كل ما كتبه ونشره فى تأييدها لم يكن سوى شبح لا يعبر عن أفكاره ومبادئه، بل كان مجرد بضاعة طرحها للناس، فأخذها من أخذ، واعرض عنها من أعرض (!!) .

●● فى تعليقها على هذا الموقف الانتهازى، تقول الدكتورة نجوى كامل أستاذة الصحافة بكلية الاعلام: إن أبو الخير نجيب بهذا القول قد أدان نفسه وجريدته، قبل أن يدين حكومة الثورة، فمن خلال استعراض مقالات أبو الخير نجيب، نجده يأخذ موقف المحرض للثورة، والمدافع عن الاجراءات الاستثنائية، خاصة ما يتعلق منها بالتطهير وتصفية الخصوم، وليس له أن يتذرع بحجة الرقابة على الصحف لتبرير التهليل، لأن الرقابة قد تمنع الكاتب من الهجوم على ما لا يقتنع به، ولكنها لا تفرض عليه أن يكون محبذاً ومشجعاً لكل إجراء استثنائى ضد الديمقراطية، وضد آرائه السابقة، ودليل ذلك أن عدداً من الكتاب استطاعوا - رغم الرقابة المفروضة - أن لا ينجرفوا إلى تيار التهليل، والاندفاع فى مباركة الاجراءات الاستثنائية مثل أحمد أبو الفتح وإحسان عبد القدوس، وغيرهما.

●● وتقول الدكتورة نجوى: لقد سخر أبو الخير نجيب قلمه فى تحريض قادة الثورة على محاكمة خصومهم أمام محاكم استثنائية لا تتوافر فيها ضمانات العدالة الكافية، ولعل وقوف أبو الخير نجيب متهماً أمام محكمة الثورة بعد ذلك باشهر قليلة: يعطينا عبرة، ويدعونا إلى أن نطلب الحماية القانونية الكاملة لمن نظنهم أعداءنا، وألا نشجع أى إجراء استثنائى يوجه ضدهم، فالذى يتعرض له خصومنا اليوم، قد نواجهه نحن غداً.. وهو ما حدث بالفعل لأبو الخير نجيب.

محاكمة إنتقامية

عندما قدم الصحفى أبو الخير إلى المحاكمة أمام محكمة الثورة: لم يتعاطف معه قطاع كبير من الناس كغيره من السياسيين الذين حوكموا ثم سجنوا بقصد إقصائهم عن الحياة السياسية، وليس بسبب أعمال ارتكبوها تستوجب العقاب، وكانت تهمة «الاتصال بجهة أجنبية» هى السيف البتار الذى وضعته الثورة على رقاب خصومها دون أن يكون لهذه التهمة الشنيعة سند من الحقيقة، ولكن الثورة اختلقت هذا السلاح المزيف لاثارة الرأى العام الذى يحمل بطبعه حساسية شديدة ضد الجهات «الأجنبية»، وفى وقت تعثرت فيه مفاوضات الجلاء مع بريطانيا.

● كانت تهمة الاتصال بجهة أجنبية تتصدر قائمة الاتهامات الموجهة إلى نجيب مثل: أنه اتصل بطوائف الطلبة والعمال، وعمل

على تكتيلهم وبث روح التذمر فيهم، وحثهم على التمرد، وإشاعة الفوضى والاضطراب بقصد زعزعة الثقة فى نظام الحكم الثورى، ومنها أنه امتهن مهنة الصحافة فلم يلتزم دستورها وأهدافها القويمة، بل سخر جريدته (الجمهور المصرى) فى إشباع أطماعه الذاتية، وجعل منها وسيلة ابتزاز الأموال بطرق ملتوية، ليحقق لنفسه كسباً غير مشروع، وبذلك ضلل الرأى العام، ونصب من نفسه أداة فعالة لنشر الفساد.

● وأمام محكمة الثورة المشكلة من عبد اللطيف البغدادى وأنور السادات وحسن إبراهيم: وقف أبو الخير نجيب وهو فى غاية التأثر من تهمة العمالة الأجنبية، فطلب من المحكمة أن تأمر باعدامه إذا ثبتت عليه هذه التهمة، واستمعت المحكمة إلى شهود الاثبات، وكلهم من الصحفيين العاملين معه فى الجريدة، والناقمين عليه بخله وتقتيره عليهم، وإندفع بعضهم إلى اتهامه فى عقيدته فنسب إليه أنه أفتى ببطلان فريضة الحج، وقال آخر أنه كان يشيع الانحلال الخلقى فى المجتمع، وينشر الفضائح الجنسية فى الصحف الأولى.

● أما شهود النفى الذين حددهم المتهم: فقد تخلفوا عن الحضور، وبرر أحدهم - وهو سعد زغلول فؤاد - ذلك بأنهم خشوا من مواجهة هذا الموقف الصعب، ولهذا اضطر المتهم إلى التنازل عن سماع شهادتهم، وترافع الادعاء فوصف المتهم بأنه مجرم وفاجر وداعر، وأنه أندس فى الصحافة فى غفلة من الزمان، واتخذها أداة طيعة لابتزاز الأموال ونهش الأعراض والتهجم على أقدار الناس، وأنه ما كان يستحق شرف

المثول أمام محكمة الثورة، لولا إدعاء الخيانة الموجه إليه، وفى نهاية المرافقة طالب بأعدام المتهم.

● وبنى المحامى عن أبو الخير نجيب دفاعه على أن مبادئه تتفق مع مبادىء الثورة، وتلا فقرات من مقالاته فى تأييد الثورة، وطعن على شهود الاثبات بأنهم موتورون، وليس فى ماضيهم ولا حاضرهم ما يؤكد الثقة فى أقوالهم، ومنهم مفصولون من الجريدة، وقال أن اجتماع المتهم بالطلبة أمر عادى يحدث فى كل الصحف، أما المستند الذى قدمته النيابة كدليل على اتصال المتهم بجهة أجنبية، فقد أثبت المحامى أنه مزور، وإنتهت المحكمة إلى الحكم على أبو الخير نجيب بالاشغال الشاقة لمدة (١٥) عاماً، وتجريده من شرف المواطن.

● فى تعليقها على وقائع المحاكمة: سجلت أستاذة الصحافة الدكتورة نجوى كامل هذه الملاحظات:

أولاً: إن حيثيات الحكم خلت من كل ما يشير إلى تهمة الاتصال بجهة أجنبية.

ثانياً: وجود نية مبيته لدى هيئة المحكمة للإيقاع بأبو الخير نجيب، حيث أفسح رئيس المحكمة صدره للادعاء للسخرية من المتهم وتجريحه، وتجريح محاميه ومقاطعته أثناء مرافعته، كما تدخل رئيس المحكمة كثيراً لوضع التهم على لسان الشهود، فضلاً عن تشجيعه للشهود على إقحام موضوعات خارج موضوع القضية مثل «نسب» أبو الخير نجيب، وغيرها من تجاوزات، وحماية شهود الاثبات من تجريح

الدفاع لهم، فضلاً عن إزدراء رئيس المحكمة للمتهم وتوجيه عبارات قاسية إليه.

ثالثاً: إن غالبية وقائع الابتزاز التى ذكرها الشهود، تعود إلى عامى ١٩٥١ و١٩٥٢، ولابد أن نتساءل: لماذا لم يقدم أبو الخير نجيب إلى المحاكمة بعد قيام الثورة مباشرة، إذا كانت حكومة الثورة حريصة بالفعل على كرامة مهنة الصحافة؟ والإجابة: هى أن محاكمة أبو الخير نجيب ليس لها علاقة بالابتزاز، بقدر ما لها من علاقة بمواقفه خلال أزمة مارس.

رابعاً: بدا من أقوال الشهود وجود قدر كبير من الضغوط تمارسها الجريدة على بعض الشخصيات والهيئات للحصول على منح مالية أو إعلانات، وهو ما لا يمكن أن يتم إلا بموافقة أبو الخير نجيب.. ولكن هل هذا يبرر هذا الحكم القاسى الذى لم يصدر من منطلق الغيرة على مهنة الصحافة، بقدر ما كان إنتقاماً من مواقف أبو الخير نجيب من أزمة مارس ١٩٥٤، ويؤكد هذا ما ذكره أبو الخير نجيب فى حديث مع جريدة (الجديد) اللبنانية نشر فى عام ١٩٧١ وقال فيه أن جمال عبد الناصر استدعاه أثناء المحاكمة - بحضور زكريا محيى الدين - وعرض عليه أن يعود للوقوف فى صف الثورة، ويكف عن الحملة على الرقابة الصحفية والحكم الفردى، إلا أن أبو الخير رفض ذلك العرض، على أساس أنه لا يستطيع المساومة على حرية الصحافة، وهدده عبد الناصر بأن الحكم سوف يصدر بإدانته، وفى اليوم التالى صدر الحكم عليه.

وهكذا - تقول الدكتورة نجوى كامل - تشير كل الدلائل إلى أن

محاكمة أبو الخير نجيب لم تكن لها علاقة بالابتزاز، أو حتى اتصاله بالطلبة، وإنما ارتبطت بشكل أساسي ومباشر بمواقفه في أزمة مارس من قضية الديمقراطية.

مجلة الفصول

لاتزال رفوف مكتبتى تحتفظ بأعداد قليلة من مجلتين كانتا تصدران فى أربعينيات القرن الماضى فى حجم كتاب صغير يسهل وضعه فى الجيب، وتلك هى الصفة المشتركة الوحيدة بينهما، أما الفروق فى المضمون والأسلوب والاتجاه: فواسعة. فإحداهما مغرقة فى الجدية، بقدر ماكانت الأخرى ممعنه فى البساطة والخفة. ومع ذلك كنت أجد متعة فى قراءة المجلتين، لدرجة أننى كنت أصحو مبكرا للحصول عليهما من قطار الدلتا، الذى يحمل الصحف إلى بلدتنا، دون انتظار لشرائهما من البائع المتجول.

والمجلة الأولى هى (الفصول) التى كان يصدرها شهريا المفكر الكبير محمد زكى عبد القادر من مكتبه الخاص فى شارع شريف بوسط العاصمة، ويعاونه نخبة من شباب الكتاب الهواة، وصاروا كتابا

مرموقين فيما بعد، من أمثال أحمد بهاء الدين وعبد الرحمن الشرقاوى، ولم تكن أسماؤهم تظهر على الفصول التى يكتبونها، لأن كتاب ذلك العصر لم يكونوا حريصين على بروز أسمائهم كما هو الحال الآن، وإنما كان يهمهم ظهور أفكارهم. وأما المجلة الثانية فهى (كلمة ونص) ويصدرها شاعر الأغانى المعروف مأمون الشناوى ومعه فريق من الصحفيين المشهورين بخفة الظل، وبساطة الأسلوب، أبرزهم محمود السعدنى. وكانت موضوعاتها تنم عن اسمها، فالموضوعات قصيرة، وتتعرض بالنقد والسخرية من مظاهر الخلل فى الحياة الاجتماعية والسياسية والفنية.

أمامى الآن العدد (٢٨) من (الفصول) الصادر فى سبتمبر ١٩٤٦، وعلى الغلاف صورة تمثال مجسم رأس الزعيم سعد زغلول دون ذكر اسمه، ودون إشارة إلى البحث المنشور داخل العدد على اتساع (١٢) صفحة تناول فيها الكاتب حياة سعد، والمكونات الشخصية التى صنعت منه زعيما للأمة، وقائداً لثورتها عام ١٩١٩، ورغم أن المقال كان غفلا من التوقيع، إلا أن القارئ المتابع لأسلوب الأستاذ محمد زكى عبد القادر، ومنهجه فى الكتابة السياسية، يعرف أنه كاتب المقال.

وعلى الصفحة الثالثة فهرست للموضوعات التى يحتويها العدد، وبنظرة سريعة نستطيع أن نتعرف على شخصية (الفصول) ورسالتها الثقافية، التى تتلخص فى إثارة الوعى السياسى والفكرى لدى القارىء، فهى تطلعه على آفاق الأوضاع الدولية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وقضية فلسطين، وتقدم إليه أخبار المخترعات العلمية الحديثة،

وفى نفس الوقت تشده إلى أعماق الماضى فى منظومة تربط بين القديم والحديث، والحاضر والمستقبل، وتجمع فى وعاء واحد بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، فتجد بين فصولها مقالا بديعا عن «الصاحب بن عباد» الذى اشتهر بولوعةبالسجع فى هجاء خصومه، حتى ليقول لأحدهم: «والله لولا شئ لقطعتك تقطيعا، وبضعتك تبضيعا، ووزعتك توزيعا، ومزعتك تمزيعا، وجزعتك تجزيعا، وأدخلتك فى خزائنك جميعا».

وفى نفس العدد تقدم لنا مقالا للمكفر الإنجليزى «برتراند راسل» عن القوى الحاسمة فى ميدان السياسة، وعرضا لكتاب «إميل لودفيج» بعنوان: امنعوا الحرب العالمية الثالثة، وبحثا عن طريقة جديدة لحفظ الطعام وتجفيف الخضراوات وتعليبها بحيث يسهل على ربة البيت تخزينها ثم طبخها فى وقت سريع، والمقال مترجم عن مجلة «كوروتت» بقلم جون ديفز ومقال آخر مترجم عن مجلة (كافا لكاد) الاسترالية عن الوجود المزدوج، وإمكانية ظهور الإنسان فى مكانين فى وقت واحد، والمقال يروى قصصا مدهشة عن أشخاص تواجدوا فى أماكن متعددة فى فترة زمنية واحدة، ويتساءل كاتب المقال: هل هناك من تفسير علمى يمكن أن يوضح لنا ظاهرة الوجود المزدوج، وأن هذه القصص لتشهد بأن العقل الإنسانى مايزال قاصرا عن فهم كثير من أسرار الروح.. والقضية لاتزال تبحث عن جواب..

وفى الفصول بحوث تاريخية عن نجاح قدماء المصريين فى تصنيع الخبز منذ خمسة آلاف سنة، وبعد أن كانوا ياكلون القمح مسلوقا على

شكل (عصيدة) صاروا يفردون العجين فى شكل رقائق يضعونها فى أفران. وبذلك اخترعوا هذا الطعام اللذيذ المسمى «خبزا».. وتمكنوا من تخزينه عدة أيام.

ومقال عن تاريخ «جامعة كمبردج» منذ كانت على هيئة دير صغير يعنى بالتعليم الدينى، ثم ظلت تكبر وتنمو حتى صارت مدينة جامعية منذ ١٢٨٤ بفضل الهبات والتبرعات، ثم تعاون الفنانون والعلماء والأثرياء والحكومات المتعاقبة على جعلها أعجوبة فنية رائعة تمثل قوة البشر، ومواهب الفن، وقدرة مبانيها الكثيرة يحمل اسم الشخص الذى شيده على نفقته الخاصة.

وفى تضاعيف هذه البحوث الدسمة تجد صورا منقوله عن لوحات فنية لرسامين عرب وأجانب، منها لوحة محمود بك سعيد عن (بنات بحرى) تقابلها لوحة (الفتاة مع كتابها المفضل) للرسام الفرنسى «جيوم». وقصة للكاتب العالمى «أندرية موروا». إلى جانب طرائف ونوادر مثل: لماذا تشكو من زوجتك، وعادات الزواج فى شهر العسل.

أما أغرب خبر علمى فى هذا العدد فهو المنشور تحت عنوان (العالم يسير إلى الإمام) وفيه أن القمر قد يستخدم قريبا فى توصيل الرسائل اللاسلكية وذلك بأن ترسل الإشارات من نيويورك بطريقة (مورس) إلى القمر فيعكسها هذا إلى باريس خلال ثانيتين ونصف الثانية، وتصل صافية تماما، فلا تؤثر فيها العواصف المغناطيسية، ولا الكلف الشمسى، ولاتضعف بطول المسافة، ويتكلف الجهاز المرسل ٣٠٠ ألف دولار

فقط.. وبهذه الارهاصات العلمية كانت الفصول تبشر قراءها بإنجازات العلم الحديث.

كانت (الفصول) نافذة أطل منها عقلى على حياة جديدة تفور بالحركة والنشاط والتقدم وتتجاوز الحياة المحدودة التى كنت أعيشها فى القرية، وكانت بذرة حضارية رسخت فى أعماق وجدانى، ودفعتنى دفعا إلى خوض هذا العالم الفسيح عن طريق الالتحاق ببلاط صاحبة الجلالة.

من باب القراء

دخلت عالم القراءة الصحفية من بوابة الصحافة السياسة، لأن البيئة التى عشتها فى مرحلة الصبا، كانت مشغولة بهموم السياسة والحكم، ومقاومة الاحتلال، والدعوة إلى جلاء القوات الأجنبية، فلما وقعت نكبة فلسطين: أضافت إلى النار وقودا جديدا، وبات الاشتغال بالقضايا السياسية غذاء يوميا للشباب والشيوخ وكافة فئات الأمة. ولم يكن يمر يوم دون أن يخرج طلاب المدارس والجامعات للتظاهر، منددين بالاحتلال والصهيونية وكانت الحكومة تضطر إلى تعطيل الدراسة إلى أجل غير مسمى.

وكان هذا النشاط الوطنى يجد صداه لدى الصحف، فتنشر أخبار المظاهرات والاشتباكات والضحايا.. وتعمل على إذكاء نار المقاومة، وتنشر مقالات الكتاب الوطنيين. واجتذبتنى صحيفة «المصرى» التى

كان يرأس تحريرها أحمد أبو الفتح، ورغم أنها كانت (لسان حال حزب الوفد) إلا أنها فتحت صفحاتها للكتاب من كافة الاتجاهات السياسية، وتعلمت منها أن الانتماء الحزبى لا يعنى الانغلاق والتعصب وفهمت أن الديمقراطية الحقيقية هى أن تفتح جميع النوافذ الفكرية، بما فيها آراء الخصوم.

أما قراءة المجلات: فقد بدأتها من مجلة «الاثنين والدنيا» التى كانت تصدر عن دار الهلال، وكان طابعها الخفة والرشاقة، وتتناول القضايا السياسية من الهامش الذى يجنبها مزالق الصراعات الحزبية، وكانت محدودة الانتشار إلى أن تولى أمرها مصطفى أمين فدفع بها دفعات قوية، وأدخل عليها الكثير من فنون الصحافة، حتى صارت من أكثر المجلات توزيعا. وإلى جانب «الاثنين» كانت تصدر مجلة «مسامرات الجيب» وتشبهها شكلا وموضوعا، فانصرفت عنها اعتقادا منى بأن التقليد هو مسخ للأصل، ولم يرسخ من ذاكرتى عن هذه المجلة سوى «مذكرات طالب بالكلية الحربية» للأديب الناشئ، وقتذاك، يوسف السباعى.

ومن «الاثنين».. انتقلت إلى «المصور» التى بدأت، منذ عام ١٩٤٧، تصدر فى ثوب جديد من حيث الحجم والشكل والموضوعات، وأضفى عليها رئيس تحريرها فكرى أباظة من شخصيته الجذابة، ومواهبه الصحفية، ماجعلنى «أدمن» قراءتها والاحتفاظ بأعدادها حتى الآن، وكان فكرى أباظة «فلتة» فى عالم الصحافة والسياسة، فهو فى الأصل محام ينتمى إلى الحزب الوطنى القديم، ولكنه لم يمارس المحاماة، ولم

يترافع أمام محكمة، وإنما جند نفسه محاميا عن القضية الوطنية من خلال مقالاته فى «الأهرام» وكان أحد قلائل المعارضين الذى نجحوا فى انتخابات ١٩٢٤ وصار عضوا فى أول مجلس للنواب فى العصر الدستورى، وهو أحد الذين أرخوا لثورة ١٩١٩ من خلال تجربة شخصية تضمنها كتابه الشهير «الضاحك الباكى» وقد صدر فى أكثر من طبعة، ولايزال الناس يحرصون على قراءته لما فيه من مواقف تبعث على البكاء والضحك فى آن واحد.

وبعد عشر سنوات من صدور «المصور» اختار صاحبى دار الهلال اميل وشكرى زيدان: فكرى أباظة رئاسة تحرير «المصور» فانتقل بها نقلة هائلة من مجلة للتسلية ونشر الفكاهات والنكت والنوادر، إلى مجلة صينة تعنى بقضايا المجتمع والسياسة والثقافة والفن والأدب.. وكانت صفحات «المصور» ملتقى أصحاب الأقلام الكبار من أمثال العقاد وطه حسين وسلامة موسى وأحمد لطفى السيد وأحمد أمين.. وغيرهم.

وإلى جانب «المصور» اكتشفت مجلة «روز اليوسف» بما كانت تحتويه من مقالات سياسية يكتبها إحسان عبد القدوس وأحمد بهاء الدين وعبد الرحمن الشرقاوى وسامى داود، وعميد الإمام ولطفى الخولى، وكان المرحوم صلاح حافظ ـ الطالب بكلية الطب ـ يكتب زاوية أسبوعية تحت عنوان «انتصار الحياة» تمزج بين الأفكار العلمية والأفكار السياسية فى ضفيرة جذابة وبأسلوب يتميز بالبساطة والرشاقة. هذا طبعا إلى جانب الدراسات الفلسفية التى يكتبها محمود أمين العالم. فكانت روز اليوسف وعاء ثقافيا تصب فيه روافد متعددة الألوان.

فى تلك الفترة كانت تصدر مجلات وصحف تنطق باسم الحركات العقائدية: الاخوان المسلمون، والتنظيمات الماركسية، واللواء الجديد التى كان يصدرها فتحى رضوان بعد انشقاقه عن الحزب الوطنى، «والكاتب» التى كان يصدرها سعد كامل، إلى جانب صحف الأحزاب: السياسة عن حزب الأحرار الدستوريين، والأساس عن حزب السعديين، والنداء وصوت الأمة عن الوفد، وكان أهم مافيها كتابات الدكتور محمد مندور ويمثل الجناح التقدمى فى حزب الوفد المسمى: الطليعة الوفدية.. وكانت هناك صحيفة «الملايين» ويصدرها أحمد صادق عزام عن الماركسيين، وكنت أقرأ جميع هذه الصحف، وأستمتع بما تنشره من مقالات وبحوث كان لها أثر كبير فى توسيع مداركى، وانفتاحى على عالم الفكر دون تعصب، حتى أننى قرأت لصاحب الملايين أن جريدته تعانى من أزمة مالية ستدفع بها إلى التوقف عن الصدور، ويطلب من القراء أن يمدوا له يد المساعدة فما كان منى إلا أن بعثت إليه مظروفا يحتوى على (شلن) أى خمسة قروش، مشاركة متواضعة منى فى محنته، ووصله التبرع ونشر عنه فى الجريدة.

كنت أتابع بشغف المعارك الصحفية التى تنشب بين هذه الصحف وهى انعكاس للصراعات السياسية والفكرية التى كانت تسود مصر فى أواخر الأربعينيات، وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وكان كل منها يسعى إلى اجتذاب حماس الجماهير وتأييدها.. وصولا إلى الحكم.. وبقى هذا المد الصحفى والسياسى يتصاعد حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو فخمدت المعارك، وطويت الصحف.

الصحافة والبرلمان

سألتنى الأخت الفاضلة عفاف جلال، من إذاعة لندن العربية: لماذا لاتفكر فى ترشيح نفسك لعضوية المجالس النيابية؛ فقلت لها إن للانتخابات طقوساً وتقاليداً وسلوكيات لاتتفق مع تكوينى النفسى، فأنا لاأستطيع الطواف على النوادى والمقاهى وسرادقات العزاء لكسب تأييد الناخبين وطلب أصواتهم، فذلك شكل من أشكال الاستجداء لا أرضاه لنفسى، أننى أحب الناس حبا خالصا، وأذهب إلى سرادقات العزاء لأداء الواجب، وليس من أجل التودد المفتعل وشراء الولاء.

ولم يكن فى وقت التسجيل متسع لأقول لها أن عزوفى عن عضوية البرلمان يرجع إلى إيمانى الشديد بقوة مهنتى - الصحافة - فهى تكفل لى التعبير عن رأيى بملء حريتى، وأجند قلمى للدفاع عن القضايا التى تشغل اهتمامى بأكثر مما لو أطلقت لسانى تحت قبة البرلمان، ولأنى

أعتقد أن الكلمة المكتوبة أبقى أثرا من الكلمة المنطوقة فالذاكرة السمعية قد تنسى الخطبة بعد إلقائها، ولكنها تحتفظ بالكلمة المطبوعة فى أعماق الوعى حتى تقتنع بها على المدى الطويل.

والصحافة والبرلمان من أجلّ المنابر التى ابتدعتها البشرية فى تاريخها الحديث، وكلاهما ينافس الآخر فى التعبير عن الرأى العام، والرقابة على السلطة التنفيذية، ومقاومة الاستبداد والحكم المطلق، وقد عرفت مصر الصحافة الشعبية فى نفس الفترة التى ظهرت فيها الحياة النيابية فى عصر الخديو أسماعيل، ولكن إذا بحثت عن أى المنبرين كان أقوى تأثيرا، وأكثر قدرة على تغيير مجرى الأحداث: ستكون النتيجة فى صالح الصحافة، ذلك أن المجالس النيابية كانت مقيدة بإرادة الحاكم، لأنها صنيعته، يستطيع أن يعطلها أو يحلها فى أى وقت يشاء، أما الصحافة فكانت تستمد قوتها من الرأى العام، ورغم أنها كانت تتعرض للتضييق من جانب السلطة، إلا أنها كانت سرعان ماتسترد عافيتها، وتواصل رسالتها وهى أشد قوة.

وفى ذلك يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة، أستاذ الصحافة، وهو يؤرخ لنشأة الصحافة: من المحقق أن الصحافة الشعبية لعبت فى تاريخ مصر السياسى دورا أهم من الدور الذى لعبته المجالس النيابية وكانت الحكومات تخشى سطوة الصحافة أكثر مما تخشى سطوة المجالس النيابية التى كانت على اختلافها تخلو من الهيبة والقوة، ولاتحمل المؤرخ على النظر إليها بعين الاكبار والاجلال، بل كانت «صورة

كاذبة للحكم الدستورى، على حد تعبير أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى. ويضرب الدكتور حمزة مثلا بجريدة «الأهرام» التى غيرت خطها وحملت علم الجهاد ضد الاحتلال، وكذلك صحيفة «اللواء» التى بلغت من الجرأة أنها لم تقتصر على محاربة الاحتلال وأعوانه، بل أعلنت سخطها على الخديو عباس الثانى منذ نفض يده من مناصرة الحركة الوطنية.

أما قبل وقوع الاحتلال: فكانت الصحافة الشعبية أكثر جرأه، وأوسع حرية، وأمضى سلاحا فى الدفاع عن الشعب، ويكفى أن نذكر مقالات عبد الله النديم فى نقد الخديو أسماعيل، فإذا قسنا ذلك كله بما كان من جهل النواب المصريين، وخوف أكثرهم من التعرض لنقد العرش أو الحكومة، وعدم فهمهم للمسئولية الوزارية: عرفنا أن الصحافة الشعبية كانت صاحبة الفضل الأول والأخير فى النهضة المصرية، وفى الدفاع عن هذه المجالس النيابية، التى لولا الصحافة لبطش بها الحكام، ولعصفت بها حروف الأيام.

فإذا سأل سائل: أيهما كان أجدى على النهضة المصرية فى القرن التاسع عشر: الصحافة أم مجالس النواب، لايتردد الدكتور حمزة فى الحكم للصحافة بأنها كانت أجدى نفعا، وأعمق أثرا فى الحياة المصرية من جميع جوانبها، لأنها كانت صحافة رأى تناضل عنه، وذلك مايفسر لنا كثرة ماتعرضت له هذه الصحافة من أذى الحكومات، وبطش الحكام الذين رأوا فيها أداة خطيرة فى الذود عن حقوق الشعب، فقامت بكل

هذه الأعباء، واستطاعت أن تشارك بنصيب الأسد فى خلق الرأى العام، وأن توجه مصر - لا من الناحية السياسية فحسب - بل من النواحى العلمية والأدبية والثقافية وغيرها، وهى التى أفهمت المصريين وغيرهم من الشرقيين فى ذلك الوقت: معانى الحرية والوطن والوطنية، والدين والدولة، وغير ذلك من المعانى السياسية الجديدة التى كانت أثرا من آثار احتكاك الشرق بالغرب.. فإذا جاز لنا أن نوازن بين ماأدته الصحافة الشعبية من خدمات، ومأدته المجالس النيابية: فإننا لانتردد فى القول بأن كفة الصحافة هى الراجحة. وأن سلاحها هو الأمضى، وأن جوادها فى ميدان الاصلاح السياسى والاجتماعى والاصلاح الأدبى والثقافى: لايشق له غبار.

بعد هذه الشهادة التى سجلها أستاذ تاريخ الصحافة، أترانى كنت على حق عندما راهنت على الجواد الرابح.. وأفنيت حياتى جنديا فى بلاط صاحبة الجلالة؟؟

فضل المطبعة

سنظل ـ نحن الصحفيين والكتاب ـ ومعنا كل البشر الذين يعرفون القراءة والكتابة: مدينين بالفضل إلى ذلك المواطن الألمانى جوهان جوتنبرج (١٣٩٧ ـ ١٤٦٨) لأنه صاحب اختراع المطبعة التى يسرت على الإنسان قراءة الكتب مطبوعة بحروف واضحة، وبعدها ظهرت الصحافة فازدادت آفاق العلم والمعرفة، وشاعت الأفكار والآراء، وتكون مايعرف بالرأى العام، سواء على المستوى المحلى أو الأقليمى أو العالمى، وصار مايجرى فى الصين يتردد صداه فى أوروبا.

قبل المطبعة كان المؤلفون والأدباء والشعراء: يذهبون بكتبهم إلى دكاكين الوراقين حيث جماعة من الخطاطين يعكفون على نسخ الكتب مقابل أجر زهيد. وكان أقصى ماينسخونه عدد محدود من النسخ يحملها صاحبها لبيعها أو إهدائها إلى الخلفاء والسلاطين ووجوه الدولة

ومحبى العلم والثقافة، وبمرور الزمن أضحى لهذه (المخطوطات) قيمة تساوى وزنها ذهبا، وتتسابق المكتبات العالمية على اقتنائها مهما غلا ثمنها، ولو زرت دور الكتب فى العواصم الأوروبية والأمريكية فسوف تجد فيها قسما خاصا بكنوز التراث العربى، وبعض هذه المخطوطات ليس له وجود فى عالمنا العربى، فيضطر الباحثون إلى التجول فى هذه المكتبات للإطلاع عليها، ونقل مايريدون منها عن طريق التصوير، وفى بعض الأحيان يتردد الباحثون على عواصم متعددة للمقارنة بين نسخ الكتاب الواحد بسبب الأخطاء التى وقع فيها الناسخون بالتحريف أو التصحيف.

بظهور المطبعة انفسح المجال أمام العقل البشرى للارتقاء وتبادل الأفكار وبعد أن كان قراء المخطوط يعدون بالعشرات، اجتذبت سوق القراءة الملايين من البشر، ويعود الفضل إلى هذا الألمانى الذى نسب نفسه إلى والدته (جوتنبرج) وولد فى مدينة مينز وعاش فى ستراسبورج حيث توصل إلى اختراع آلة الطباعة عام ١٤٣٦م، وعاد إلى مسقط رأسه مينز وأنشأ المطبعة، وكان باكورة انتاجها «إنجيل مازارين» وباتت مينز مركزا للطباعة فى ألمانيا، وتهافت عليها التجار والأثرياء لشراء هذا الاختراع العجيب الذى انتشر بسرعة البرق فى كل أنحاء القارة الأوروبية ومع ذلك مات جوتنبرج فقيرا بعد أن إضطر إلى بيع مطبعته ليسدد الديون التى تراكمت عليه.

وكعادة المؤرخين فى الاختلاف حول نقطة البدء فى كل اختراع، فأنهم اختلفوا حول أصحاب السبق فى اختراع حروف الطباعة وهى

التى سبقت اختراع المطبعة، ومهدت لها، فمن قائل أن حروف الطباعة اخترعت لأول مرة فى الصين، ثم تطورت فى كوريا قبل أوروبا . وشجع على ترويج هذا القول أن الصين كانت سباقة فى اختراع الورق. وتدعى هولندا أن «لورانس جانزون كوستر» سبق جوتنبرج فى اختراع المطبعة وأنه قام بعمل الحروف المتفرقة من الخشب سنة ١٤٢٣م ثم طورها إلى حروف من الرصاص والقصدير، كما نجح الألمانيان: «سوينهم وبارتز» فى نقل الاختراع إلى إيطاليا قبل أربع سنوات من وفاة جوتنبرج، وأنشأ «يوحنا ووندلف» مطبعة فى البندقية سنة ١٤٦٩، ثم دخلت المطبعة فرنسا عن طريق ثلاثة من الألمان أقاموا مطبعتهم بجوار جامعة السوربون فى باريس. ومن ثم انتشرت المطابع فى أسبانيا وإنجلترا والنمسا وبولندا، وعبرت الإطلنطى إلى العالم الجديد، وحملها الأسبان إلى المكسيك، ولم تدخل المطبعة الولايات المتحدة الأمريكية إلا فى وقت متأخر عن طريق المستوطن الإنجليزى استيفن واى فى أخريات القرن السابع عشر.

لم يطرأ تطوير على آلة الطبع فيما بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر. إلى أن نجح الألمانى «فريدريخ كونيج» فى استخدام البخار فى تشغيل المطبعة بعد أن كانت تدار باليد، كما نجح فى تثبيت الحروف على اسطوانة دائرية، وفى نهاية القرن التاسع عشر اخترعت آلة جمع الحروف فأضافت إلى العملية الطباعية تقدما كبيرا، ومنذ ذلك الوقت تتطور الطباعة تطورا مذهلا مما جعل المؤسسات الصحفية تلهث لاقتناء أحدث ماتوصلت إليه فنون الطباعة.

بالنسبة لعالمنا العربى: جاء فى الموسوعة العربية الميسرة أن حروف الطباعة العربية لم تظهر الا يوم طبع الكاهن الدومينيكى، مارتان روث (١٤٨٦) كتاب «برايدنباخ» الذى كتبه باللاتينية عن رحلته إلى الأماكن المقدسة بفسلطين، وقد تمت طباعته فى مطابع مدينة مينز بألمانيا، ومعنى ذلك أن الحروف العربية ظهرت فى المانيا لتسهيل عملية النطق بها فى حروف لاتينية، ولم يحتو الكتاب على أى نص مؤلف من جمل عربية، وإنما هى حروف عربية لكلمات لاتينية، وعندما شن ملكا الأسبان (فردينان وايزابيلا) حرب التنصير على مسلمى الأندلس، كلفا أحد المطارنة بطبع كتابين فى التبشير المسيحى لمن يجهلون العربية فى غرناطة (١٥٠٥). لتسهيل قراءته بالعربية على سلمى الأندلس، كذلك تمت طباعة «كتاب الأنجيل» بمطبعة آل مدتشى فى ايطاليا عام ١٥١٦م وهو أول مطبوع عربى مصور، وقد تم كل ذلك خارج نطاق العالم العربى.

فى عام ١٧١٦ أفتى عبد الله أفندى شيخ الأسلام فى تركيا بجواز استخدام الطباعة فى نشر الكتب، وكان أول كتاب أخرجته المطبعة التركية ترجمة «قاموس وانقولى» إلى اللغة التركية، وقبلها كانت المطبعة قد دخلت لبنان فى عام ١٦١٠ بفضل رهبان «ديرقزحيا»، وكان أول مطبوع هو «المزامير» بالسريانية والكرشونية، أما أول مطبعة استخدمت الحروف العربية فكانت مطبعة «ديرمار يوحنا» الصايغ وكان ذلك فى عام ١٧٣٤، ثم دخلت بيروت فى عام ١٧٥١، وحلب هى أول مدينة سورية تدخلها المطبعة العربية بفضل البطريك دباس (١٧٠٦ -

١٧١١) ثم توقفت، وجاءت المطبعة إلى دمشق فى أثناء حملة إبراهيم باشا على الشام، ودخلت مصر مع حملة نابليون بونابرت لطبع الصحف العربية التى كانت يصدرها ويطبع عليها منشوراته إلى المصريين. ثم أسس محمدعلى مطبعة بولاق سنة ١٨١٩ لطبع أول جريدة مصرية هى الوقائع المصرية، وعرفت العراق أول مطبعة حجرية فى عام ١٨٣٠، وفى فلسطين عام ١٨٣٠، والأردن عام ١٩٢٢ واليمن ١٨٧٧، والحجاز ١٨٨٢، والكويت ١٩٤٧.

رمضان خلف القضبان

قضيت رمضانين متتالين وراء القضبان، كان ذلك فى عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦، ورغم جهامة السجن، وبشاعة الاعتقال، فقد كان رمضان يفرض بهجته على نزلاء السجن : سجانين ومسجونين.. كان الحراس يتخففون من تكدير المعتقلين، ويحاولون بقدر ما تسمح إنسانيتهم التلطف معنا، وكانت تعليمات السجن تقضى بتقديم وجبتى الافطار والسحور مما قبل إغلاق أبواب الزنازين والعنابر فى الساعة الخامسة مساء، وعلينا أن نعكف على تجهيز الافطار بطريقتنا الخاصة كى تناسب تقاليد رمضان، وتختلف عن وجبات الغداء التى تقدم جاهزة من مطابخ السجن.

كانت عملية الطبخ تستلزم تقسيم العمل على سكان العنبر وعددهم ثلاثين شخصا، فالبعض يقوم بتقشير البصل، وتقطيع الطماطم، وفرم

البقدونس لاعداد السلطات، ونستعيض عن السكاكين بشرائح علب الصفيح بعد تفريغها من لحوم البولوبيف ونشتريها على حاسبنا الخاص من مقصف السجن، أما الطبخ فيتم فى نفس العلب ووضعها فوق جردل حتى إذا ضرب مدفع الافطار وجدنا أمامنا طعاما ساخنا شهيا يعوض الحرمان من موائد رمضان الحافلة بأطيب الطعام وتتكرر العملية ـ بدرجة أقل ـ فى وجبة السحور وتقتصر على الفول المدمس والزبادى.

كنا نجد فى تجهيز الطعام تسلية تخفف عنا لوعة السجن، وألم البعاد عن الأهل والأحباب، أما نهار رمضان فكنا نقضية فى سماع بعض المحاضرات من ذوى العلم من أمثال الدكتور توفيق الشاوى أستاذ القانون بكلية الحقوق، والدكتور محمود أبو السعود ـ يرحمه الله ـ وكان عالما فى الاقتصاد الإسلامى، وعمل فترة مديرا لبنك الدولة فى باكستان وسمحت إدارة السجن باقامة هذه المحاضرات تكريما للشهر المعظم.

كان الدكتور الشاوى يحدثنا عن النظم الديمقراطية فى الغرب، وكان كلامه جديدا على سمعى، وغريبا على ثقافتى التى كانت محصورة فى التراث الإسلامى الذى يرى فى الشورى الأصل المعتبر فى نظام الحكم، أما الديمقراطية فهى سلعة مستوردة لدينا ما يغنينا عنها، وأعترف أن محاضرات الشاوى فتحت فى عقلى نافذة لم تغلق على الثقافة الغربية، واقتنعت بأن التراث الإنسانى ملك لكل أبناء البشر ينهلون منه ما يناسب ظروفهم، أما القطيعة فتؤدى إلى الانغلاق على الذات، وحرمان المثقف من ارتياد الآفاق الرحيبة، والافادة من تجارب الآخرين. وكانت محاضرات الدكتور أبوالسعود تغوص فى أعماق

الإقتصاد الإسلامى الذى أغفلناه ردح من الزمن، فى حين ينطوى على حلول عملية لكل ازماتنا الاقتصادية.

أما المحاضرات التى لن تبرح ذاكرتى : فكان يلقيها علينا طالب كان ترتيبه الأول على دفعة كلية دار العلوم، واسمه أحمد عبدالمطلب فوده، وكان عبقريا بكل ما يعنيه هذا الوصف من لماحية وذكاء خارق، وكان موضوع محاضراته (الأنبياء من نافذة القرآن) ولما كانت الكتب محظورة على المعتقلين دون المسجونين، فقد كان المصحف هو مرجعه الوحيد فى سرد قصص الأنبياء كما وردت فى القرآن الكريم، ومتابعة جهادهم من أجل هداية البشر، وما تعرضوا له من محن وشدائد، وكانت لديه قدرة فذة على الربط بين الأحداث، واستنباط الحكم والمواعظ من ثنايا النص القرآنى وللأسف الشديد فإن هذه المحاضرات لم تسجل على ورق ولو حدث ذلك لخرجنا من المعتقل بفائدة عظمى تعوض عناء السجن.

بعد أن خرجنا من السجون : تفرقت بنا السبل، وباعدت بيننا مشاغل الحياة، وبقيت صورة أحمد عبدالمطلب فودة ماثلة فى أعماق ذاكرتى، ولازلت أحتفظ بمصحفى الذى كان يحمله فى يده وهو يلقى أحاديثه - كما فعل الشعراوى فيما بعد - وعلى هوامش هذا المصحف تعليقات بقلمه وكان مضطرا إلى ذلك حيث كنا محرومين من اقتناء الورق وعشت سنوات متشوقا إلى رؤيته إلى أن التقيت به صدفة فى شوارع وسط القاهرة، وغمرتنى السعادة بلقائه، وصحبته إلى مسكنى فى الجيزة، وقضى معنا ليله استرجعنا فيها ذكريات لا تمحى، وعرفت

أنه عين معيدا بكلية دار العلوم، ولكنى لاحظت اعتلالا فى صحته، وانتفاخا فى بطنه، فلما استفسرت منه همس فى أذنى بأنه مريض بالاستسقاء وتألمت طبعا لما آلت إليه صحته، وافترقنا على وعد باللقاء حتى نستعيد ذكرياتنا، ولكن هذا اللقاء لم يتم وعندما سألت عنه فى الكلية علمت أنه لبى نداء ربه وهو شرخ الشباب فحزنت عليه حزنا شديدا، ودعوت له بالرحمة والرضوان وشاءت إرادة الله أن تستأثر بهذا العالم قبل أن تتكشف موهبته ولو طال به العمر لكان لدينا داعية قدير لا يقل تأثيرا فى نفوس سامعيه عن الشعراوى ورحمة الله على الجميع.

العاشر من رمضان

لن أنسى ما حييت وقائع هذا اليوم المجيد الذى يوافق السادس من أكتوبر ١٩٧٣، كانت عقارب الساعة تقترب من الرابعة عصرا، وقد فرغنا من إعداد صفحات «الاتحاد»، وحملتها السيارة إلى «مطابع بن دسمال».. وانطلق جميع الزملاء إلى بيوتهم لتناول الأفطار، أما أنا فقد دلفت إلى شقتى وتقع فى نفس الطابق من تلك العمارة العتيدة بميدان الفردوس، فى أبوظبى وجلست أكتب خطابا إلى صديق وأذنى على إذاعة أبو ظبى، وفجأة قطع المذيع الإرسال ليعلن - نقلا عن إذاعة القاهرة أن الطائرات الإسرائيلية انتهكت حرمة الأجواء المصرية وتصدت لها وسائل الدفاع الجوى المصرية، ورغم أهمية الخبر فإنه لم يستفز أعصابى، لأننا تعودنا على مثل هذه المناوشات خلال حرب الاستنزاف، وتصورت أن الأمر لايعدو أن يكون نوعا من العربدة الإسرائيلية ولكن الدماء تجمدت فى عروقى عندما قطع راديو أبوطبى

الإرسال مرة ثانية ليرسل أن الطائرات المصرية تدك القواعد الإسرائيلية فى سيناء، وأن الأبطال المصريين يعبرون الآن قناة السويس ويقتحمون معاقل خط بارليف، وكذلك كان الأبطال السوريون يزحفون على هضبة الجولان.

●● الله أكبر..

لم تكن المسألة مجرد مناوشات تقليدية.. ولكنها كانت حرب التحرير.. ونهضت مسرعا إلى مفاتيح مكاتب الجريدة، ومرقت إلى غرفة أجهزة «التيكرز» فوجدت سيلا من البرقيات التى تبثها وكالات الأنباء عن سير المعارك على الجبهتين المصرية والسورية وتسمرت عينى على خبر يقول إن العلم المصرى يرفرف الآن فوق تلال خط بارليف، وأن معارك بالسلاح الأبيض تجرى على أبواب وسراديب الحصون المنيعة، وأسرعت إلى التليفون وأبلغت أخى المرحوم مصطفى شردى - رئيس التحرير يومئذ - فقال أنه يرتدى ملابسه وسيكون عندى بأسرع من البرق، وكذلك أبلغت الزملاء : إسحق منصور مدير التحرير، ووجيه أبو زكرى، وعباس الطرابيلى وأحمد عمر وجلال عارف وعبدالنبى عبدالبارى، فأخذوا يتوافدون تباعا.. وتفرغ بعضنا لسماع الأذاعات الخارجية، وسمعنا بصعوبة إذاعة القاهرة وكانت دهشتنا كبيرة عندما وجدناها تبث برامج عادية بدون ضجة أو صخب أو تشنج، وتتخللها البلاغات الحربية.

●● كانت مشكلتنا هى السباق مع الزمن لاعداد الجريدة من جديد خلال فسحة زمنية قصيرة وكانت ظروف الطبع وبعد مكان المطبعة

عن مكاتب الجريدة : يحتم علينا سرعة الإنجاز حتى تصدر الجريدة حاملة آخر أخبار العمليات الحربية، كان علينا أن نتناول وجبة الأفطار أثناء عملية المخاض.. نكتب باليمين، ونقضم السندوتشات بالشمال، وزادت المشكلة تعقيدا عندما أهل علينا - عقب الأفطار - حشد من الأخوة العرب سفراء وقناصل ورجال إعلام جاءوا يشاركوننا الفرحة، ويتابعون سير المعارك، ويحللون الموقف من جميع جوانبه، كان بعضهم يبدى تخوفه من تكرار مأساة يونية ١٩٦٧ ويقرأ البلاغات الحربية بحذر، بينما بعضهم يعلن ثقته فى صدقها استنادا إلى المصادر الأجنبية التى كانت تؤكد أن القوات المصرية والسورية صارت لها اليد العليا على القوات الإسرائيلية.

●● لن أنسى المشاعر النبيلة التى كانت تملك على حسى ووجدانى وأنا أعيد صياغة وقائع البطولة والبسالة.. لقد آن الآوان لنمحو عار الهزيمة التى لحقت بنا منذ الخامس من يونية المشئوم، وها هم الأبطال يحطمون أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر وسمعنا صرخات جولدا مائير وهى تستغيث وتستنجد بالرئيس الأمريكى نيكسون كى يتدخل، وينقذ الدولة العبرية من الفناء كانت البرقيات التى تبثها وكالات الأنباء تنطق وتتكلم عن شجاعة الرجال وهم فى بطون الدبابات، وعلى أجنحة الطائرات، وعلى ظهور القوارب التى تعبر القناة.. ويتقدمون فى عمق سيناء والجولان.. فكشفوا عن صلابة المعدن، وقوة العزم، ولم يكن شيئا من ذلك ليتم إلا إذا كان وراءه تخطيط دقيق، وتدريب جيد، وتعبئة مدروسة، وفوق كل ذلك سرية

مطلقة أذهلت إسرائيل، وفاجأتها بالضربة القاضية فى يوم عيد غفرانها الأسود.

●● كان علينا أن نعد الصفحات مزينة بالصور والخرائط، ونبعث بها إلى المطبعة، بعد أن مضى أغلب الليل، على أن نعد صفحات أخرى تحتوى على الجديد من الأخبار، لتحل محل الصفحات المطبوعة، ولا أذكر عدد الطبعات التى أصدرناها من «الاتحاد» فى هذا اليوم الخالد، فقد كانت الطبعات تتلاحق، حتى إذا أشرقت الشمس كانت طبعات «الاتحاد» تصدر تباعا فتتلقفها أيدى القراء على الفور وعدنا إلى بيوتنا لننال قسطا من الراحة بعد هذا العناء، لم نشعر بالتعب أو الإرهاق، كانت فرحة النصر تمحو كل إحساس بالتعب، وماهى إلا ساعات قليلة حتى عدنا إلى مكاتب الاتحاد ونحن أكثر شبابا وفتوة لنتابع وقائع هذه الأيام المجيدة من تاريخ أمتنا العربية.

جواد بلا فارس

فى كل رمضان يثور جدل حول أحد المسلسلات التلفزيونية، ففى العام الماضى كان الحاج متولى بطل الساحة لقدرته على الجمع بين أربع زوجات تحت سقف واحد، وقبله دار الجدل حول مسلسل «أوانى الورد» بسبب زواج المسلم من مسيحية، واليوم اندلع الصخب حول مسلسل «فارس بلا جواد» بسبب تدخل الحكومة الأمريكية، وطلبها رسميا منع عرض المسلسل لأن فيه إشارة إلى كتاب (برتوكولات حكماء صهيون) الذى تعمل الحركة الصهيونية على مصادرته وجمعه من الأسواق وحرقه، لأنه يفضح الخطط التى وضعها غلاة الصهيونية فى أخريات القرن التاسع عشر، وعرضوها على المؤتمر الصهيونى الأول الذى انعقد فى مدينة بازل السويسرية فى عام ١٨٩٧، وتهدف الخطط إلى إقامة حكومة يهودية تهيمن على العالم بعد الاطاحة

بالأنظمة الحاكمة عن طريق الانقلابات وإشاعة الفوضى والخراب فى المجتمعات.

●● هذه الجزئية من المسلسل، رغم أنها فرعية وغير أساسية، إلا أنها استنفرت القوى الصهيونية، ودفعت الإدارة الأمريكية إلى أن تتدخل لدى الحكومة المصرية كى تمنع عرض المسلسل، وأعلن صفوت الشريف وزير الإعلام رفض الطلب، وتصدى الكتاب والمفكرون للرد على الحملة الأمريكية، وكانت حجتهم أن الحكومة الأمريكية لا تسمح لنفسها بالتدخل لوقف سيل الأفلام والمسلسلات التى تطفح بها ستديوهات هوليود طعنا على الإسلام والمسلمين، فكيف تطلب من الحكومات العربية ما تحرمه على نفسها(!!).

●● لقد ركزت الحملة الإعلامية العربية على الجانب السياسى للمسلسل، واحجمت عن تناول الجوانب التاريخية والفنية، حتى لا يصب النقد فى خانة الجبهة المعادية، ولا شك أن المسلسل أفاد من تلك الهوجة الإعلامية، أما الذين شاهدوه بعيون النقد الفنى : فقد راعهم أن يعمد الفنان محمد صبحى إلى قلب الحقائق التاريخية، ويجعل من بطل القصة - حافظ نجيب - بطلا وطنيا يكافح الاستعمار، ويطارد الجنود الإنجليز، رغم أن القضية الوطنية لم تشغل تفكيره، ولم تجتذب نشاطه، لأن نبوغه الوحيد كان فى تدبير جرائم النصب والسرقة والاحتيال(!!)

●● والحق : أن حافظ نجيب لم يزعم طوال حياته أنه رجل سياسة أو مبادئ أو كفاح، وكان معجبا بنفسه كلص ومحتال بارع فى التنكر حتى أنه - لكى يهرب من الشرطة - تنكر فى زى راهب مسيحى، وعاش فى الدير، وخطب فى الكنائس وقد اعترف بكل هذه الجرائم فى

كتابين من تأليفه : أحدهما اسمه (اعترافتى) والثانى اسمه (مغامراتى) ودخل تاريخ الإجرام من أوسع أبواب السجون.

●● لقد قلب محمد صبحى كل هذه الحقائق، وألبس حافظ نجيب مسوح الوطنية وأجرى على يديه أعمالا بطولية لم تخطر على بال صاحبها، ولو أتيح للرجل أن ينهض من قبره فسوف يضحك ملء شدقية لأنه ضحك علينا فى مماته، كما ضحك على ضحاياه فى حياته وأعتقد أنه سيعلن عدم رضاه عن الصورة التى ظهر بها والتى تغاير البعد الإجرامى فى شخصيته والذى كان محل رضاه وهو يبرر - فى كتاباته - مسلكه المنحرف بالظروف التربوية منذ نشأته الأولى، وتفسخ أسرته، فعاش مثل النباتات التى تطفو على سطح الأنهار.. بلا جذور .. ولا انتماء.. ولا قيم.. ولا أخلاق.

●● هل من حق العمل الدرامى أن يعبث بالشخصيات التاريخية، ويعيد صبها فى قوالب توافق مزاج الفنان، وتقلق بال المؤرخ؟ إن من حق العمل الدرامى أن يتناول الأحداث والشخصيات التاريخية ولكن دون تحريف أو اختلاف، يستطيع الفنان أن يختلق شخصيات أو أحداثا هامشية لا تخرج عن السياق التاريخى، وإلا فقدت الصدق، ودخلت تحت لائحة التزييف.

●● هل مسلسل «فارس بلا جواد» يساوى الصخب الذى دار حوله؟

لو طرحنا جانبا البعد السياسى الذى وضع المسلسل فى دائرة الضوء من قبل عرضه فإن المسلسل يبدو للمشاهد عاديا.. لا يرقى إلى مستوى الأعمال الجيدة التى قدمها محمد صبحى، وقدمته إلى الناس كفنان

جاد ملتزم يحترم عقل جمهوره، ويحترم رسالته الفنية، ولكن مشكلة محمد صبحى فى هذا المسلسل أنه ظهر للناس كنجم أوحد لا تكاد الشاشة تخلو من صورته، ومن حوله مجرد كومبارس مهمتهم تثبيت نجومية الفارس، وعندما تبحث عن الهدف المقصود من خلال سرد الأحداث : تجد نفسك فى متاهة لا تستطيع الخروج منها، ولا تجد خطا دراميا يصل بك إلى الهدف المنشود، وطوال العرض تشعر أنك أمام جواد يمرح فى البرية باحثا عن الفارس الذى يمسك زمامه ويصل به إلى محطة النهاية التى يقف عندها المشاهد منتظرا ومترقبا.. فلا يجد الفارس.. ولا يجد الجواد.

المساجد والمدارس

فى رمضان : يحلولى التجول بين بيوت الله، وخصوصا المساجد القديمة التى أقامها الملوك والسلاطين تقربا إلى الله ويختلط فيها عبق التاريخ بروحانية الصيام، ورغم أن أول مسجد أقيم فى مصر، هو مسجد الفسطاط، الذى بناه قائد الفتح عمرو بن العاص، إلا أن التجديدات المتتالية التى دخلت عليه خلال العصور الإسلامية، أفقدته بعض معالمه الأصلية، وينطبق هذا الكلام على الجامع الأزهر الذى بناه القائد جوهر الصقلى مع القاهرة قبل حضور سيده الخليفة المعز لدين الله إلى عاصمة ملكة الجديد، ولم يبق من شكله القديم سوى أثر ضئيل، ذلك أن حكام مصر كانوا يعملون دائما على ترميمه وتوسيعه.

ومن المساجد الفاطمية التى بقيت حتى الآن : الجامع الأنور، وقد بدأ فى بنائه الخليفة العزيز بن المعز، واكتمل بناؤه فى عهد ابنه الحاكم

بأمر الله، وقد تعرض هذا المسجد الكبير للاهمال فى القرن العشرين، وكنت أتردد عليه ويتملكنى الأسف عندما كنت أرى ساحته الواسعة وقد تحولت إلى سوق لبيع البصل والليمون وتحاصره النفايات من كل جانب، فلما كان عصر السادات طلبت طائفة (البهرة) أن يقوموا على تجديده وإصلاحه، فسمح لهم والبهرة كلمه هندية تعنى (التجار) وهم البقية الباقية من الطوائف الإسماعيلية الذين ينتسب إليهم الفاطميون، ولما كان البهرة يشعرون بالحنين إلى مصر، فقد انفقوا الملايين على تجديد هذا المسجد حتى أعادوه إلى صورته الأولى، حتى أنهم جلبوا له الأخشاب من سنغافورة لتغطية السقوف المنهارة من نفس نوع الخشب الذى غطى به سقف المسجد الأصلى، وفرشوا أرضه بالسجاد الفاخر، وزودوه بالنجف الكريستال حتى أصبح المسجد تحفة معمارية .

وهناك مساجد تضفى على النفس روحانية عميقة، ويتقدمها بالطبع مسجد الإمام الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهم، وفى ضريحة توجد رأسه الشريفة التى فصلت عن الجسد أثناء مذبحة كربلاء، ثم حملت إلى دمشق حيث أمر الخليفة يزيد بن معاوية بدفنها بعد أن أعلن تبرئه من هذه المذبحة اللعينة، ولم يتفق المؤرخون على المكان الذى دفنت فيه الرأس، إلى أن انتقلت من عسقلان بفلسطين إلى القاهرة ولكن المتفق عليه أن الوزير الفاطمى طلائع بن رزيك بنى مسجدا خارج باب زويلة ليكون مقرا للرأس، بعد نقلها من عسقلان، وخوفا عليها من العبث أثناء الحروب الصليبية،، فحملت الرأس فى غطاء من الجوخ بداخل صندوق من الفضة، وخرج الوزير وبصحبته وجهاء الدولة لاستقبال الموكب الذى جاء برأس الحسين من عسقلان،

ولكن امراء الأسرة الفاطمية رفضوا تدفن الرأس فى مسجد طلائع، وقالوا أنهم أحق برأس الحسين من الوزير الأرمنى الأصل وبالفعل تم دفن الرأس فى إحدى غرف القصر الكبير، ولاتزال فى موقعها حتى الآن، وبعد تطورات سياسية تم هدم القصر، وأقيم على أنقاضه مسجد الحسين الذى يعتبر من أعظم معالم القاهرة الدينية، وحرص كل الملوك الذين توالوا على حكم مصر، على توسعة المسجد وتجديده ويضم المسجد غرفة تحتوى على بعض آثار الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا تفتح هذه الغرفة إلا للملوك والأمراء وكبار الضيوف.

ومن مساجد القاهرة ذات الشهرة الجماهيرية : مسجد السيدة نفيسة، وهى من سلاله الحسن بن على، وزوجها اسحق المؤتمن هو ابن الإمام جعفر الصادق، ومسجدها يزدحم دائما بالمصلين الذين يحرصون على الدخول إلى ضريحها، والتوجه إلى الله بالدعاء لما يقال أن الدعاء مستجاب فى مسجدها.

أما مسجد أحمد بن طولون فهو من أكبر مساجد القاهرة، وقد أقامه الأمير أحمد بعد أن استقل بمصر عن الخلافه العباسية فى عام ٢٥٤هـ ولا تزال جدرانه على حالها وهى مبنية من الآجر، وتتوسطه مئذنة فريده ليس لا نظير فى العالم الإسلامى إلا فى مدينة (سر من رأى) بالعراق، حيث درجات السلم تقع خارج عمود المئذنة، وليس بداخلها، ورغم اتساع مسجد ابن طولون، فإن الاقبال عليه ضئيل، ويرجع ذلك إلى إشاعة انتشرت عند بنائه، وهى أن ابن طولون أقام مسجده على أرض مغتصبة، ومن ثم أعرض الناس عن الصلاة فيه، ورغم مرور

ألف سنة على هذه الاشاعة، فإن المسجد يعانى من قلة المترددين عليه للصلاة، وإن كان السياح يضعونه فى برنامج زيارتهم للمساجد ومن المعالم الأثرية النادرة فى العمارة الإسلامية : مسجد السلطان حسن الذى يقع فى سطح قلعة صلاح الدين، وقد اقامه السلطان حسن بن قلاوون ليكون مسجدا ومدرسة فى وقت واحد.

والمعروف أن المدارس لم تظهر كمؤسسات تعليمية متخصصة، إلا فى العراق فى القرن الخامس الهجرى، على يد الوزير العظيم «نظام الملك» أشهر وزراء الإسلام فى عصر الدولة السلجوقية فى بغداد، فهو أول من أقام المدارس النظامية ـ نسبة إليه لتشرف على تعليم التلاميذ علوم الدين وعلوم الدنيا، بعد أن كانت المساجد تقوم بهذه المهمة، ومن العراق انتشرت المدارس فى كل البقاع الإسلامية، وأول من أدخلها إلى مصر : البطل صلاح الدين الأيوبى، فقد انشأ العديد من المدارس فى مصر والشام، وخصص لها الأوقاف للانفاق من ريعها على طلبة العلم والمدرسين وسار على نهجه ملوك الدولة الأيوبية، فلما كان عصر المماليك انتشرت المدارس، وأروعها مدرسة السلطان حسن، وكانت تضم بيتا لايواء التلاميذ، وتمنحهم الكتب والأدوات المدرسية بالمجان، وجلب لها أكابر العلماء المتخصصين فى علومهم، فإلى جانب تدريس علوم القرآن والحديث والفقه كانت المدرسة تعلم الطب والهندسة والفلك والنبات، وفيها تخرج كثير من العلماء الذين ازدات بهم العصر المملوكى.

بهجة العيد

هناك فئات من الناس محرومون من قضاء العيد بين ذويهم، مثل رجال الشرطة والإسعاف والدفاع المدنى وقطاع الطوارئ فى المستشفيات فكل هؤلاء يقضون العيد خارج بيوتهم ليكونوا فى خدمة الجمهور، ومن هؤلاء أيضا رجال الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون، فواجب المهنة يقتضيهم النزول إلى الحدائق والمتنزهات والأماكن العامة ليسجلوا مظاهر البهجة والفرح، ويرصدوا ما عسى أن يقع من حوادث خاصة عند مراسى المراكب النيلية التى تتجه إلى القناطر الخيرية ولاتزال مقصد الغالبية من أهل القاهرة لقضاء العيد بين حدائقها الشاسعة، ويحدث أن تحمل المراكب ضعف حمولتها، فتتعرض للغرق بمن عليها من بشر، وتتحول بهجة العيد إلى مأتم، وأبشع حادث من هذا النوع ما وقع لركاب الباخرة «دندرة» فى أواخر الخمسينات، فبعد وصولها إلى شاطئ القناطر : قام البحارة بسحبها إلى

الشاطىء بحبال غليظة، ولم يعملوا حساب التوازن، فانقلبت السفينة على جانبها، وغاصت فى قاع النيل فى غمضة عين وعلى متنها مئات الركاب من الرجال والنساء والأطفال.

●● وفى أحد الأعياد كلفت بتغطية حادث سقوط الكوبرى «الهزاز» فى حدائق القناطر الخيرية، وكان عبارة عن كوبرى معلق فى الهواء بين دعامتين من الحديد عن طريق سلسلة من الجنازير ويهتز مع حركة الركاب أثناء رقصهم ولهوهم، ولما كان الكوبرى - حتى يوم العيد - يحمل ضعف حمولته، فقد انقطعت السلسلة، وهوى الكوبرى إلى الأرض بركابه، وتكدست أجسادهم مما أدى إلى وفاة الكثيرين، وكانت كارثة أفسدت على رواد القناطر بهجة العيد.

●● وباستثناء هذه الواقعة : لا أذكر أننى قضيت العيد خارج بلدتى إلا مضطرا، ولازلت حريصا على قضاء العيدين بين أهلى وأصدقائى فى الريف، حيث تتآلف الأرواح، وتتقارب النفوس، وتتجدد الذكريات، ولاتزال زيارة المقابر صبيحة يوم العيد واجبا يفرضه الأموات على الأحياء، فيلبون النداء، وأتوقف أمام شواهد القبور، أتطلع إلى أسماء الراقدين، وتواريخ رحيلهم، ويتملكنى الأسى عندما أكتشف رحيل صديق أو جار دون علم منى، فلا أملك سوى أن أترحم عليه، وأقرأ على روحه الفاتحة.

●● ولا يمنعنى من قضاء العيد فى بلدتى سوى مانع قوى، وأذكر أننى دعيت منذ عدة سنوات للمشاركة فى مؤتمر بالعاصمة البريطانية قبيل العيد، وقبلت الدعوة على شرط أن أعود إلى مصر قبل العيد، وفى

لندن لجأت إلى من أعرف ومن لا أعرف من ذوى النفوذ لكى يدبر لى مقعدا على الطائرة، حتى عثرت على مقعد فى طائرة تصل إلى مطار القاهرة فى فجر يوم العيد، واتصلت على الفور بمكتبى فى القاهرة لتكون السيارة فى انتظارى كى تحملنى على الفور إلى بلدى، وتم كل شيء على ما تمنيت، ووجدت السائق فى انتظارى فألقيت بجسدى فى جوف السيارة، وطلبت من السائق أن يسابق الريح كى نصل مبكرا، ولكن ما أن غادرنا القاهرة حتى هبطت علينا «شبورة» كثيفة عكرت الرؤية، ولم تفلح الكشافات الضوئية فى كشف معالم الطريق، وسارت السيارة بسرعة السلحفاة حتى أشرقت الشمس، وحان موعد صلاة العيد فتركنا السيارة ودخلنا مسجدا يقع على حافة الطريق، وصعد الخطيب المنبر ليلقى خطبة العيد فإذا به يسترسل فى خطبته دون مراعاة إلى أن غالبية المصلين من عابرى الطريق، وطرح علينا كل مشاكل الدنيا صغيرها وكبيرها، وما كاد ينتهى من خطبته حتى استوقفنا أهالى القرية كى نتناول كعك العيد، ونشرب الشاى، تمشيا مع تقاليدهم مع المسافرين، وعبثا حاولت إقناعهم بإخلاء سبيلى واضطررت إلى قبول ضيافتهم الكريمة على حساب كل دقيقة أتمنى قضاءها بين الأهل والأصدقاء.

●● ومن الموانع التى حالت بينى وبين الاستمتاع بالعيد بين أهلى : ظروف قهريه اضطرتنى إلى قضاء أربعة أعياد متتالية خلف القضبان، ورغم ذلك فقد فرضت بهجة العيد نفسها على السجين والسجان، فالزنازين تفتح لكى يتبادل النزلاء التهانى، ويتخلى السجان عن تكشيرته التقليدية، وتقدم إدارة السجن الكعك والحلوى إلى ضيوفها،

ومعظم هذه الحلوى تأتى من أهل الخير الذين يذكرون نزلاء السجون فى الأعياد لعلها تخفف عنهم قسوة الحياة وراء القضبان وفى أيام العيد تزداد نسبة الزيارات العائلية، أما تعساء الحظ فهم الذين يمكثون أيام العيد دون أن يتذكرهم أهلوهم لأسباب يجهلونها، ولكن السجين لا يغدر أهله، ولا يقدر الظروف التى حالت بينهم وبين زيارته فى يوم العيد، ويعتبر ذلك تقصيرا يستحقون عليه اللوم، وتلعب الهواجس فى رأسه لتفسير غياب الأهل.

●● ولا أنسى أيام الأعياد خلال السنوات التى عشتها فى الأمارات وغالبا ما كنا نقضيها فى دبى أو الشارقة أو رأس الخيمة أو خور فكان أو مدينة العين، نزور الأصدقاء والأقارب المقيمين فى هذه المناطق ونخرج إلى البر لنقضى الليل فى الصحراء ونملأ البطون بالشواء على نار الفحم، ثم نعود إلى أبو ظبى لنستأنف حياتنا بعد أن نكون قد قضينا أيام العيد فى لهو ومرح.

الضاحك الباكى

كان فكرى أباظة باشا من أصحاب المواهب المتعددة، فهو الكاتب السياسى الأول فى الأهرام والمصور، وهو المحامى المتفرغ للدفاع عن قضية الحرية، وهو عضو البرلمان القابع فى صفوف المعارضة بحكم انتمائه إلى الحزب الوطنى القديم، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد، ولم تفلح جهود الأحزاب الجديدة فى اجتذابه إليها، وهو المتحدث الإذاعى المشهور الذى كانت الجماهير تلتصق بالراديو لتسمع أحاديثه المرحة مساء كل أربعاء.

كان أهم مايميز فكرى أباظة: خفة الظل، والقدرة على انتزاع البسمة من فم القارئ أو المستمع، وكانت سخريته غير جارحة تعتمد على النكتة البارعة، والقفشة الظريفة، والحبكة المثيرة، فإذا لم يجد مايسخر منه: سخر من نفسه ومن هندامه ومن تكوينه الخلقى، وقد

كتب للسينما قصة فريدة اسمها (خلف الحبايب) يسخر فيها من الإفراط فى النسل، وقام ببطولتها الممثل «فؤادالجزائرلى» وزوجته المعروفة بأسم «أم أحمد» وكانا يجهلان أسماء أولادهما ـ لكثرتهم ـ فكان لكل ولد رقم يعرف به أما أبرز مؤلفات فكرى أباظة فهو كتاب «الضاحك الباكى» وأرخ فيه للمرحلة الأولى من حياته عندما كان يعمل محاميا فى أسيوط واشتعلت ثورة ١٩١٩ فخاض غمارها حتى كاد يقع فى قبضة الانجليز، وهناك ربطت العاطفة بينه وبين فتاة من عائلات الصعيد اسمها «ثروت» تعرضت للاغتصاب من جنود الأحتلال، ولم تتحمل الفتاة الفضيحة، فانتحرت، وعاش فكرى وفيا لذكراها، أوحرم على نفسه الزواج حتى نهاية حياته.

كان تاريخ ميلاد فكرى أباظة من الأسرار الحربية التى احتفظ بها لنفسه وحجبها عن أصدقائه ومعارفه، وكان هذا السر مجال تندر ومعاكسات من محبيه، وأغلب الظن أنه من مواليد السنوات الأخيرة فى القرن التاسع عشر، وقد منحته حياة العزوبية حرية مطلقة للتنقل والسهر فى المنتديات والصالونات، وخاصة النادى الأهلى، فهو من أبرز مؤسسيه، وعضوا لامعا فى فريق كرة القدم، وله صولات كروية محفوظة فى صحافة ذلك العصر، وظل طوال حياته لصيق الصلة بالنادى الأهلى، يلتف الأعضاء حوله ليسعدوا بنوادره وقفشاته. وصار نقيبا للصحفيين أكثر من مرة، وكانت المرة الوحيدة التى رأيته فيها عندما جاء لزيارة النقابة فى أخريات أيامه وقد بلغ بصره من ضعف البصر ماجعله يتعثر فى مشيته، ومع ذلك كان يأبى أن يأخذ أحد بيده.

أما شهرته الشعبية فقد جاءته عن طريق الراديو، ووجد المستمعون فى أحاديثه النقد اللاذع لتصرفاتهم وعاداتهم وتقاليدهم، ومع ذلك كانوا يهرعون إليه، لما يلمسونه فى كلامه من صدق، فهو يستهل حديثه إليهم قائلا: سيداتى وسادتى: أحلف لكم بالله العظيم وصدقونى، عمرى ماحطيت ودنى ورا باب وسمعت الكلام الى بيدور ورا الباب، أنى «أصنت» وأتجسس فشئ مش فى طبيعتى ولا فى أخلاقى، مش لأننى شريف وعفيف.. ولكن من خوفى لأسمع كلمة تعكننى، وتفور دمى، وتحشر علاقتى مع اللى باعاشرهم ويعاشرونى، وديك النهار بعيد الندا ماشى ورا باب المطبخ اللى بيكالوا فيه حضرات المحترمين الأفاضل اللى بيخدمونى: الطباخ والسواق والفراش وولد أفندى بيساعدهم، سمعتهم عاملين «مؤتمر» وكله على راس، سمعت الطباخ بيقول: البيه بتاعنا ده «غلباوى» كل يوم يزعق ويقول لى اكتب المصروف، اعمل لى الحساب، وبعدين يبص فيه ويقول: طيب.. لا هو عارف القلقاس بكام، ولا السمنة قد أيه، ولا الفرخة نوعها إيه.. وبس داوشنى وداوش نفسه على قلة فايدة.. كه.. كه.. كه.. وهات ياضحك.. فقال الفراش: دا البيه بتاعنا باين عقله طاير.. يرمى المحفظة كل يوم فى حتة وينساها.. وبيجى يخانقنى حطتها فين.. مرة لقيته نازل ولابس فردة شراب كحلى وفردة بنى.. حبيت أنبهه قام من كسوفه قاللى أنت اللى ملخبط الشرابات وهوشنى.. كر.. كر.. كر.. وهات ياضحك.. قام السواق قال: ياخى انتو بتشوفوا إيه.. دا كل يوم يفك جنيه ينطس له فى ريالين مزيفين.. وبيجى يقوللى أنت اللى جايب الفكه.. أقول له لا.. ونتخانق والأتوموبيل ماشى أعمل تلات مخالفات يكعهم وهو زى البرنس.. كه.. كه.. كه.. وهات ياضحك..

أقول لكم الحق.. أخدت على خاطرى.. وقلت فى نفسى: بقى الناس اللى بياكلوا فى خيرى عمالين يهزؤوا فيه.. إيش حال اللى مالهوش عندى حاجة.. ياواد إوعى تصنت على حد من هنا ورايح.

●● ورغم أن حياة فكرى أباظة كانت أشبه بكوميديا ضاحكة خالية من المنغصات ـ إلا أن الخاتمة كانت أشبه بالتراجيديا السوداء، وذلك عندما أمر الرئيس الراحل عبد الناصر بعزله من رئاسة دار الهلال ومنعه من الكتابة.. وذلك بسبب سطر واحد ورد فى مقال له. وقد فهم عبد الناصر من هذا السطر أن فكرى أباظة يدعو إلى الاتفاق مع اسرائيل.

وظل فكرى أباظة فى عزلته، إلى أن خرج على الناس باعتذار فى الصفحة الأولى للأهرام، وكانت صيغة الاعتذار مهينة للرجل الذى عاش حياته الصحفية والبرلمانية مرفوع الرأس، ويقول حلمى سلام أنه صارح فكرى أباظة ـ فى جلسة خاصة بمكتبة ـ يصدمة الناس بهذا الاعتذار المهين. فإذا بفكرى أباظة يتنهد من أعماقه قائلا: الله يسامحه هيكل (يقصد محمد حسنين هيكل) فلولا الضغوط التى مارسها علىّ، لما كتبت حرفا واحدا فى هذا الأعتذار الذى اعتبره كل أصدقائى سقطة ماكان لى أن أقع فيها..

يقول حلمى سلام: واعتقادى الخاص أن معنويات فكرى أباظة، وإحساسه الكبير بكيانه المستمد من تاريخه الوطنى الطويل: قد انهار تماما منذ ذلك اليوم.

وكانت هذه البكائية هى ختام حياة الضاحك الباكى. رحمه الله.

صحفيون من مهن أخرى

اجتذبت مهنة الصحافة أشخاصا من مهن أخرى كان من الممكن أن يحققوا فيها نجاحا كبيرا، ولكنهم فضلوا العمل فى بلاط صاحبة الجلالة على ممارسة المهن التى درسوها فى الجامعات، منهم الذين تخصصوا فى الهندسة مثل على أمين وجلال الدين الحماصى، ومنهم أطباء مثل يوسف إدريس، ومصطفى محمود وابراهيم ناجى صاحب (الأطلال) التى تشدو بها أم كلثوم، ومنهم من تخرج فى كلية الزراعة مثل على حمدى الجمال، أو كلية العلوم مثل سعيد سنبل وصلاح جلال وعواطف عبد الجليل، ومنهم ضباط جيش مثل خالد محيى الدين ويوسف السباعى وأحمد حمروش، أو ضباط شرطة مثل سعد الدين وهبة..إلخ

وعندما تبحث عن سر هذا التحول فى حياة هؤلاء الكتاب الكبار: فلن تجد الجواب إلا فى قوة الجاذبية الصحفية، وسحرها الشديد على

من يقع فى هواها، فيضحى بمهنته، راضيا بما سوف يلقاه فى بلاط صاحبة الجلالة من متاعب. وكل هؤلاء لاقوا معارضة شديدة من جانب أهلهم وذويهم حين رأوا «أولادهم» يعرضون عن المهن التى درسوها فى الجامعات ويحترفون الصحافة فى وقت كان فيه الصحفى يتعرض للعواصف والأنواء بسبب الصراعات الحزبية، والتقلبات الوزارية، ولم يكن للصحفى قوانين تحميه من البطش. ومع ذلك استجاب هؤلاء الرواد لنوازع نفسية دفعت بهم إلى عالم الصحافة.

خذ مثلا: على أمين.. فبعد أن حصل على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) فى عام ١٩٣١ بعث به أبوه - السفير أمين يوسف - إلى لندن ليدرس الهندسة، ويبعد عن عالم السياسة ومافيه من مضايقات فى عهد إسماعيل باشا صدقى، ويكفى أن ابنه الثانى - مصطفى - غرق إلى شوشته فى هوى الصحافة، ولم يكن الأب يدرى ان ابنه «على» ذهب ليدرس الهندسة لتكون البوابة التى سيدخل منها إلى بلاط صاحبة الجلالة، وبعد أن قرأ عددا من الكتب الأنجليزية عن الصحافة الحديثة، أدرك بعدها أن الصحافة سوف تعتمد على الهندسة والماكينات الدقيقة، وقبل سفره سألة أستاذه التابعى عن سر اختياره للهندسة ولماذا لايدرس الصحافة مثلما يفعل أخوه فى أمريكا، فكان رده: قررت أن أدرس الهندسة لأساير تطور الصحافة فى المستقبل.. ثم يستطرد: ولاأذكر إذا كان هذا حقا هو سر دراستى للهندسة، أو أننى قلت ذلك على سبيل «التهويش» للتابعى، وأوهمه أننى أقرأ كتب الصحافة الحديثة ويستعد لتطويرها.. ولكن الذى أذكره إننى أخترت دراسة الهندسة لأرضى أسرتى لأنها كانت ترفض أن أكون صحفيا..

فقررت أن أحصل على شهادة بكالوريوس الهندسة، وأسلمه لأسرتى، ثم أشتغل بالصحافة سرا بجانب الهندسة، وأثناء دراسته فى جامعة «شيفيلد» لم ينس على أمين أنه صحفى، فكان يبعث بمقالاته إلى شقيقه مصطفى فى مجلة روز اليوسف، فنشر تحت اسم «السندباد البحرى» وهو الاسم المستعار الذى أختاره له التابعى. وظلت حكومة صدقى باشا تسعى لمعرفة هذا الصحفى المجهول الذى يزود روز اليوسف بأدق الأخبار.

وبعد عودته من انجلترا شارك على أمين فى اصدار مجلة «آخر ساعة» تحت قيادة التابعى، وهو الذى اختار لها هذا الاسم، وكافأه التابعى على ذلك بمبلغ خمس مليمات، كما يقول فتحى رزق فى كتابه نجوم فى بلاط صاحبة الجلالة، وكان يقدم أفكار الكاريكارتير إلى الرسام «صاروخان»، كما شارك فى تصميم الأعداد الأولى من جريدة «المصرى» عند صدورها فى عام ١٩٣٦ وكان نشاطه الصحفى مركزا فى الناحية الفنية مستفيدا من العلوم الهندسية والفنون الطباعية التى درسها فى انجلترا وكان هناك يتدرب فى مصنع لآلات الطباعة وعمل على أمين بعد عودته من إنجلترا مهندسا فى وزارة الأشغال تلبية لرغبات أسرته وظل يترقى فى سلك الوظيفة حتى شغل منصب مدير مكتب وزير الأشغال عبد القوى أحمد باشا، ولكنه مالبث أن استقال ليتفرغ للعمل الصحفى، فأعطاه كل مايملك من مواهب وخبرات ظهرت جلية فى كل الصحف والمجلات التى أشرف عليها.

● ● أما سعيد سنبل فقد تخرج فى قسم الحشرات بكلية العلوم سنة ١٩٤٩ ولم يكن فى الكلية نشاط صحفى يلبى هوايته فى كتابه

القصص، فكان يبعث بها إلى جريدة «الكتلة» فيجدها منشورة مما شجعه على مواصلة الكتابة حتى أنه فكر فى التحول من كلية العلوم إلى كلية الآداب تمهيدا لاحتراف الصحافة، فقد كان يتصور أنها مهنة مريحة، غير أن بعض أقاربه نصحوه بالاستمرار فى دراسة العلوم، وبعدها يختار المهنة التى يحبها، وبعد تخرجه ذهب به ابن عمه إلى جلال الدين الحماصى رئيس تحرير صحيفة «الزمان» اليومية ليضعه فى سلم المحررين المبتدئين، فأحاله إلى موسى صبرى الذى طلب منه أن يقدم إليه موضوعات علمية بطريقة إخبارية بعيدة عن الجفاف العلمى، فقدم إليه موضوعا عن أستاذ حشرات فرنسى كان يزور القاهرة، ويجرى دراسات حول نوع من الخنافس يمكن إطلاقها فى مزارع القطن فتلتهم الدود، غير أن موسى طلب منه إعادة كتابة الموضوع بأسلوب سهل، وفى المرة الثالثة حاز الموضوع على موافقة موسى صبرى، فنشره تحت عنوان: «خنافس من باريس». وكانت تلك أول خطوة لسعيد سنبل فى بلاط صاحبة الجلالة.

الأمير والشاعر

الصحافة صناعة حديثة لم تظهر إلا بعد اختراع المطبعة، فى القرن السادس عشر، وليس معنى ذلك أن العهود السابقة على المطبعة لم تعرف الصحافة كوسيلة إعلامية قامت على أكتاف الشعراء والأدباء، فسجلوا أحداث عصرهم فى قصائد الشعر أو فصول الأدب، ولذا حرص الخلفاء والسلاطين والأمراء على اجتذاب كبار الشعراء وإغرائهم بالمنح والعطايا كى يهرعوا إلى بلاطهم، فيذكروا مناقبهم، ويشيدوا بأعمالهم، واشتد التنافس على جذب الشعراء والأدباء فى العصر العباسى الثانى، بعد أن فقدت الخلافة سلطتها المركزية فى بغداد، وقامت الدول الإقليمية، وانتقلت مراكز الثقافة إلى العواصم فى دمشق وحلب والقاهرة والقيروان وقرطبة وكان كل أمير يصحب الشعراء فى جولاته وحروبه ليسجلوا مشاهداتهم مثلما يفعل المراسلون العسكريون فى عصرنا.

وكـان من الطبـيعى أن يبـالـغ الشعـراء فى وصف البطولات، فـتلك طبيعة الشعر والشعراء، وأبرز مثل على ذلك معركة «عمورية» التى دارت بين جيوش الخلافة العباسية، بقيادة المعتصم، وبين الروم، فهذه المعركـة ـ من وجهة نظر المؤرخين ـ ليست من المعارك الضخمة، التى خاضها المسلمون ضد بيزنطة، ولكن الشاعر الكبير «أبو تمام» وكان فى صحبة المعتصم، جعل منها ملحمة شعرية وعسكرية، وخلدها فى قصيدته التى مطلعها:

السـيفُ أصـدقُ إنبـاءً من الكتب

فى حـدِّه الحـدُّ بين الجـدِّ واللعب

ومن الشعراء من فاقت شهرته شهرة الأمير الذى يعمل فى بلاطه، ولاشك أن قراء العربية يضعون أبا الطيب المتنبى على رأس قائمة الفحول من شعراء العربية، والقلة هى التى تعرف أن الأمير الذى تغنى المتنبى بأمجاده وبطولاته ـ وهو سيف الدولة الحمدانى ـ لم تكن إمارته تتعدى حلب وماحولها، ولم تكن قيمته السياسية تضاهى مقام الخلافة فى بغداد، أو نفوذ الأخشيديين فى مصر، ولكن المتنبى جعل منه أسطورة تتغنى بها الألسنة على مدار القرون. ذلك أن العلاقة بين الأمير والشاعر: تشبه فى كثير من ملامحها تلك الصلة التى نراها فى عصرنا بين حاكم وصحفى، كلاهما نجح فى الاستحواذ على قلب صاحبه، الحاكم يدفع بصديقه المقرب إلى القمة الاعلامية، والصحفى يبذل كل إمكاناته من أجل الترويج لفكر صاحبه.

وكانت العلاقة الفريدة بين سيف الدولة والمتنبى موضع حسد من جانب حاشية الأمير، وعلى رأسهم ابن عمه وزوج اخته ـ نجلاء ـ الشاعر الكبير أبو فراس، وكان يطمع فى أن تكون له الحظوة عند ابن عمه قبل المتنبى، فشارك فى الدسائس التى أدت إلى تعكير صفو العلاقة الحميمة بين الأمير وشاعره، حتى اضطر المتنبى إلى مغادرة بلاط سيف الدولة، والهجرة إلى بلاط كافور الأخشيدى فى مصر.

وكان كافور أديبا وناقدا وفاهما لدروب الشعر وأفانينه، وكان يعلم أن المتنبى لم يقصده إلا طمعا فى منصب إدارى مرموق، فرغم المكانة السامقة التى بلغها أبو الطيب فى مجال الشعر، إلا أن نفسه الأمارة بالسوء جنحت به إلى التطلع إلى ولاية «منية ابن خصيب» وهى محافظة المنيا حاليا، وتلك إحدى نقاط الضعف فى شخصية شاعر العربية الأكبر، ولقد أفصح عن أمنيته صراحة وهو يخاطب كافور بقوله:

أقلّ سلامى حبّ ماخفّ عنكمو

وأمسكت كيما لايكون جوابُ

وفى النفس حاجاتٌ وفيك فطانةٌ

سكوتى بيانٌ عندها وخطابُ

ورغم المدائح التى أنشدها المتنبى فى حضرة كافور، وهو الذى أطلق عليه وصف «ابو المسك» فى قصيدة مطلعها:

أبا المسك أرجو منك نصرا على العدا

وآمل عزاً يخضب البيضَ بالدم

فإن كافور ـ الخبير بخبايا النفوس ـ كان يدرك أن هذه المدائح مصطنعة ولاتتجاوز شقشقة اللسان، وليست نابعة من شغاف القلب كتلك المدائح التى كان يخلعها المتنبى على سيف الدولة. وقد ظهر ذلك من أول قصيدة أنشدها المتنبى فى حضرة كافور، واستهلها بذكر الموت والمنايا حيث قال:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا

وعلق كافور على هذا الاستهلال السئ بقوله: ماكان ينبغى لمن قصد الملوك أن يكون الموت والمنايا أول مايخاطبهم به، واكتشف الطرفان ـ الأمير والشاعر ـ ان كليهما غير صادق فى حبه للآخر، ولقد اعترف المتنبى بهذه الحقيقة بعد أن غادر مصر، وقال: كنت إذا دخلت على كافور يضحك، ويبش، إلى أن أنشدته:

ولما صارَ ودّ الناس خبًا

جزيتُ على ابتسام بابتسام

وصرتُ أشك فيمنْ أصطفيه

لعلمى أنه بعض الأنام

فما ضحك بعدها فى وجهى إلى أن فارقته، فعجبت من فطنته وذكائه.

صاحب الفضل

أيهما كان سببا فى شهرة الآخر: سيف الدولة الحمدانى أمير حلب؟ أم شاعر العربية الأكبر أبو الطيب المتنبى؟

رجال السياسة والحكم ينتصرون لسيف الدولة، فلولاه ماانطلقت مواهب المتنبى، ولولا إغراقاته ومكارمه لما تحركت ملكاته الشعرية، فقد كان شاعرنا الفحل محبا للمال والجاه، فوجد بغيته عند صديقه الأمير، وفى بلاط الحمدانيين كانت له الريادة والسيادة على فيلق الأدباء والشعراء الذين ازادن بهم البلاط.

أما نقاد الشعر والأدب فينسبون الفضل للمتنبى، فأشعاره القوية أذاعت صيت الحمدانيين فى الآفاق، وخلدت اسم سيف الدولة فى التاريخ، ولولاه مااشتهر هذا الأمير الذى كان يحكم إمارة لاتتجاوز إقليما فى العراق أو مصر أو الأندلس، ولكن المتنبى جعل منه نجما ساطعا ينافس فى شهرته ملوك الدول الكبرى.

ولكى نحسم هذه القضية الخلافية: لابد أن نعطى لكل ذى حق حقه، بغير انحياز أو تحامل. صحيح أن سيف الدولة كان قائدا محاربا ينظم الجيوش، ويبنى الحصون، ويخوض المعارك، وكان قرب ولايته من دولة الروم البيزنطية سببا فى دوام التوتر بينهما، ويحفظ لنا التاريخ صولاته وجولاته فى ميادين القتال، حتى لايكاد يأنس إلى راحة أو هدنة، وقد أحاط نفسه بكتيبة من كبار القادة، وخبراء الحرب، مثلما جمع حوله العلماء والشعراء والفلاسفة من كل قبيل. ولكنه كان إلى جانب هذه النزعة الحربية: أديبا مطبوعا، تربى فى حضن الثقافة منذ طفولته، وكان قصره يضم مكتبة ضخمة عامرة بكل صفوف المعرفة، وحينما كان يتوجه إلى ساحات القتال: لم يكن ينقطع عن الاطلاع والقراءة، بل كان ينتهز فترات الراحة بين المعارك، فيأوى إلى خيمته وينصرف إلى القراءة.

كان سيف الدولة ـ كما يصفه أستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة من الملوك المثقفين، واجتمع له إلى جانب هذه الثقافة موهبة نظم الشعر، فجاء شعره جميلا عذبا، وله شعر وجدانى رقيق قال أكثره فى جارية رومية فاتنة الحسن، وقعت أسيرة فى إحدى الغزوات، وكانت ابنة أحد الأمراء البيزنطيين. فمن قوله فيها:

أَقَبِّلُهُ على جزعِ كشربِ الطائرِ الفزعِ
رأى ماءً فأطمعه وخاف عواقب الطمع
وصادفَ فرصةً فدنا ولم يلتذَّ بالجزع

وكان سيف الدولة، إلى جانب موهبته الفطرية، صاحب رؤية نقدية لما يذاع فى حضرته من قصائد يلقيها فحول العصر الذين هرعوا إلى بلاطه، وقد جاءوا من مختلف الأوطان العربية ليكونوا فى صحبة هذا الأمير الذى جمع بين السيف والقلم، وكلهم يسعى إلى حظوة الأمير، وهو يرى أمامه هذا التنافس فيعمل على إيقاد جذوته كى تتفجر ينابيع الشعر عن أحلى الكلام، وكان ذلك مثار خلافات ومشاحنات كانت تصل أحيانا إلى حد تدبير المؤامرات والدسائس، ولاشك أن المتنبى كان يحظى بالقدر الأكبر من هذه المكايد نظرا لقربه من الأمير، ولم يكن سيف الدولة يخفى تعصبه للمتبنى، ليس عن هوى أو حب أجوف، ولكن لأن المتنبى كان يستحق عن جدارة موقع الصدارة بين شعراء عصره، وكل العصور، ولأنه كان أقدر منهم على فن المديح الذى كان الأمير يطرب له أشد الطرب،

على أن هذا الحب الجارف من سيف الدولة للمتنبى: لم يمنع الأمير من أن ينتقد بعض ماكان ينظمه المتنبى، ويسمح لغيره من الشعراء بكشف بعض المعايب فى شعره، وقد شهدت ندوات البلاط كثيرا من هذه المعارك التى عادت بالنفع على تاريخ النقد الأدبى.

كنا فى شبابنا نحفظ قصيدة المتنبى التى وصف فيها سيف الدولة وهو يخوض إحدى المعارك الحربية بجسارة، والتى مطلعها «على قدر أهل العزم تأتى العزائم». والتى يقول فيها:

تمـر بـك الأبـطـالُ كـلـمـى هـزيمـةً

ووجـــــهكُ وضــــاحٌ وثغـــــركَ باسم.

وكنا نتوقف طويلا أمام كلمة «الأبطال» ، ونعجب: هل من المعقول أن يصف المتنبى الأعداد بالبطولة، ويتطوع بعضنا من التفسير، فيرى أن الأبطال هم بعض قادة سيف الدولة الذين هزموا فى المعركة، وبقيت هذه الإشكالية فى ذاكرتى إلى أن قرأت للدكتور الشكعة فى كتابه عن سيف الدولة أن هذه القصيدة كانت موضع نقد من جانب الأمير. فحين أنشده القصيدة وجاء على ذكر البيتين:

وقفتَ وما فى الموتِ شكٌّ لواقفٍ
كأنكَ فى جفنِ الردى وهو نائمُ

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمةً
ووجهك وضاحٌ وثغركَ باسمُ

قال الأمير: لقد انتقدنا عليك هذين البيتين.. وكان من الأصلح أن تقول:

وقفتَ وما فى الموتِ شكٌّ لواقفٍ
ووجهك وضاح وثغرك باسم

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمةً
كأنك فى جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبى: أصلح الله الأمير.. فهو يعرف أن الثوب لايعرفه البزاز (تاجر الحرير) معرفة الحائك، لأن البزاز لايعرف جملته، والحائك يعرف جملته وتفاريقه، لأنه هو الذى أخرجه من حالة الغزلْ

إلى حالة الثوب، وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت: أتبعته بذكر الردى، وهو الموت ليجانسه، ولما كان وجه الجريح المنهزم لايخلو من أن يكون عبوسا، وعينه من أن تكون باكية، قلت: ووجهك وضاح وثغرك باسم، لأجمع بين الأضداد فى المعنى، وإذا لم يتسع اللفظ لجميعها.

وهنا اقتنع الأمير الأديب الناقد بوجهه نظر شاعره، وأغدق عليه خمسمائة دينار

إضراب القضاة

منذ الصباح الباكر توجهت جماهير القاهرة إلى المحكمة الشرعية بباب الخلق لمشاهدة وقائع جلسة النظر فى قضية زواج الشيخ على باشا يوسف صاحب جريدة «المؤيد» وصفية السادات دون علم ابيها، وبعد أن اكتشفت المحكمة أن قرار الحيلولة بين الزوجين لم ينفذ وأن المراسلات العاطفية تجرى بينهما، الأمر الذى رأت فيه المحكمة تحايلاً على قرارها، وأن الحكومة تتراخى فى تنفيذ القرار مجاملة للشيخ، وترضية للخديو عباس حلمى، فكان لابد من اتخاذ إجراء يردع الحكومة ويمنعها من التدخل فى شؤون القضاء. فاتصل رئيس القضاء الشرعى الشيخ أحمد الافندى بالقاضى المنوط به نظر القضية وهو الشيخ أحمد أبو خطوة وطلب منه الذهاب إلى قاعة المحكمة والجلوس على المنصة ولا يعلن بدء الجلسة إلا بعد أن يفض الرسالة التى سيبعثها إليه، وينفذ محتواها.

واتخذ الشيخ أبو خطوة مكانه على المنصة دون أن يتفوه بكلمة واحدة وساد القاعة صمت رهيب، وتعلقت عيون الجمهور بالقاضى فى انتظار ما سوف يفعل وفجأة دخل أحد الموظفين وهو يحمل ظرفا سلمه إلى القاضى ففتحه على مرأى من الناس، وبدأ فى تلاوة الرسالة التى كانت تتضمن قرارا صريحا بأن تتوقف جميع محاكم مصر الشرعية عن نظر القضايا المعروضة امامها إلى أن تلتزم الحكومة بتنفيذ حكم القضاء فكانت أول دعوة إلى الأضراب العام فى تاريخ القضاء المصرى، ولم يكد الشيخ أبو خطوة يفرغ من تلاوة القرار حتى ضجت القاعة بالتصفيق والهتاف باستقلال القضاء، وتقدمت الجماهير من المنصة وحملت القاضى على الأعناق وخرج الناس إلى الميدان حيث يقع مبنى المحافظة المجاور للمحكمة فأحاطت به وهى تطلق صيحات السخط والتنديد بتدخل السلطات الحكومية فى أحكام القضاء. وتكهرب الجو فى كل أنحاء البلاد، وطيرت وكالات الأنباء الخبر إلى كل أركان الدنيا، ودب الهلع فى نفس الخديو ومعه اللورد كرومر جبار الاحتلال واجتمع مجلس الوزراء على الفور برئاسة مصطفى باشا فهمى وأصدر بيانا أعلن فيه التزام الحكومة بتنفيذ قرار الحيلولة، وتراجعت الدولة بكل هيلمانها أمام شجاعة شيخين لايملكان من عناصر القوة سوى يقظة الضمير واحترام الذات، والتمسك بكرامة القضاء.

وعادت المحكمة إلى نظر القضية بعد أن تعهد الشيخ على يوسف بقطع الاتصالات العاطفية مع زوجته صفية.

واستمعت المحكمة إلى شهود جاء بهم الأب فقرأوا عن ظهر قلب شجرة أسرة السادات، ولما سئلوا عن نسب الشيخ على قالوا: انهم لايعرفون له أهلا، بل هو من أبوين مجهولى النسب، وبعد أن تحققت المحكمة من نسب الخصمين. انتقلت إلى النظر فى طبيعة مهنة الصحافة التى يحترفها الشيخ على يوسف، فقال المحامى الفندى أن الشيخ لايشتغل بالصحافة، وإنما هو يشتغل بشئ يشبهها لتحقيق أغراضه الخاصة، وهذا اشتغال بأخس الحرف.

وعجز الشيخ على يوسف، صاحب أكبر صحيفة عربية فى الشرق،، وأحد أصحاب الاقلام المؤثرة فى الجماهير، عن الدفاع عن نفسه، ومحو مالحق به من عار، فقد كان الشيخ أبو خطوة يضمر له الكراهية، وبعد الفراغ من نظر الدعوى اعتكف القاضى عن الناس لاعداد الحكم ويقضى بفسخ عقد الزواج، وبعدها أنقسم الرأى العام المصرى إلى فريقين احدهما فريق المحافظين الذين وجدوا فى الحكم انتصارا للتقاليد والآداب العامة التى لاتسمح للفتاة بالزواج بدون موافقة من وليها الشرعى، وهو الأب، ووجدوا فيما فعله الشيخ على يوسف خرقا لأحكام الشرع، ومجاراة مع التفرنج والتبرج وقد بدأ يزحف على المجتمع المصرى مع موجة التغريب. أما الفريق الآخر فقد انتصر للشيخ على وتعاطف معه فى محنته، وغضب على الاتهامات التى وجهت إلى الشيخ من حيث وضاعة أصله، ورأى أن المكانة الأدبية والعلمية والسياسية لصاحب «المؤيد» تجب كل ماقيل عن شرط الكفاءة الاجتماعية، فهذا الرجل الذى تمكن بفضل طموحه وشجاعته ان يصل

إلى أعلى الطبقات - لايجوز أن يلقى هذا الجحود، والحط من قدره، والطعن فى مهنته الجليلة ووصفها بالدناءة،!!

وأثار هذا الحكم شجون شاعر النيل حافظ بك ابراهيم فكتب قصيدة استهلهابنقد المجتمع الذى أغلق باب القبول أمام رجال الأدب والعلم، وأعلن عزمه على أن يحطم قلمه طالما أن هذا القلم يلقى الأزدراء

وبينما كان الناس مشغولون بهذه القضية، كان الشيخ على وصفية يدبران لأمر آخر.

الزواج الفاشل

لم تكن قضية زواج الشيخ على يوسف ـ صاحب جريدة «المؤيد» من صفية السادات: مجرد مسألة خلاف بين أسرتين تباعد بينهما الأصول والأعراق، ولكنها كانت ازمة صراع بين التقاليد الاجتماعية الصارمة، والمفاهيم الدينية السائدة، وبين الأفكار الحديثة التى تسعى الى التمرد على شرط الكفاءة الاجتماعية بين الزوجين، وترى فى ذلك تعنتا، ثم دخلت الصراعات السياسية والحزبية لتغذى هذا الصراع، وتقدم إليه وقورا يزيد النار اشتعالا. وكان الضحية زوجان جمعت بينهما العاطفة المشبوبة.

لقد وقفت الدولة والحكومة، وعلى رأسها الخديو عباس، فى صف الشيخ على، ومعه جبهة قوية من تلاميذ الإمام محمد عبده الذى انتقل إلى جوار ربه فى عام ١٩٠٥ والمعركة على أشدها، فحملت جريدة «المنار» التى كان يصدرها الشيخ رشيد رضا راية الدقاع عن

الشيخ، وترى أن ما صنعه لا غبار عليه، وأنه كفء لابنة السيد عبدالخالق السادات، وكفء لمصاهرة هذا البيت الشريف، وكان يقف في نفس الجبهة الزعيم سعد زغلول، ربما لأنه خاض نفس التجربة عندما تزوج من «صفية» بنت رئيس الوزراء - التركي المنبت - مصطفى باشا فهمي، بينما سعد ينحدر من سلالة الفلاحين المصريين الذين ينظر إليهم الترك نظره متدنية،

.. في جبهة العداء للشيخ على: كان يقف الزعيم مصطفى كامل وجريدته «اللواء» فقد أنكر حق المرأة الرشيد في تزويج نفسها زواجا شرعيا، حتى لو كان كل منهما يحب الآخر، وكان مصطفى كامل يرى عدم مشروعية هذا الزواج إذا عارض فيه ولي أمر الفتاة، وتبنى وجهه النظر التي تقدس شرط الكفاءة الاجتماعية بين الزوجين على أساس الأصل والشرف الموروث. وليس على أساس جهد الإنسان الشخصي، أو نجاحه في الرقي بنفسه إلى أعلى المراتب.. ولكن هل كان الحرص على التقاليد هو مبرر هذا العداء الذي كان مصطفى كامل يحمله للشيخ على؟ أم أنه يعود إلى أسباب ودوافع سياسية؟

لقد كان الشيخ على مسرفا في التحامل على مصطفى كامل منذ صدر شبابه، وكان يصفه بأنه شاب أهوج، فلما وقع الشيخ على في المحظور: تهيأت فرصة الانتقام والتشفي لمصطفى كامل، ووصل به العناد الى حد الصدام مع الخديو عباس بسبب مناصرته للشيخ على، وعندما التقى مصطفى مع الخديو عباس في فرنسا في اغسطس ١٩٠٤، لم يتورع الزعيم الشاب عن توجيه اللوم الى الخديو على

مداخلته فى القضية، وقال له ان هذه المداخلة تسئ إلى سمعته، خصوصا وأن الرأى العام ساخط على الشيخ على، لزواجه من البنت رغم إرادة أبيها، مما دعا الخديو إلى الاحتداد على مصطفى كامل، ومغادرة الاجتماع.

لقد اتخذ مصطفى كامل من هذا الزواج نقطه طعن على الشيخ يواجهه بها فى ملحمة الصراع السياسى بينهما، وقبل أن يسافر مصطفى كامل إلى باريس، كانت وصيته إلى أخيه المشرف على تحرير «اللواء إذا هاجمتنى المؤيد.. فلا تكتب إلا شيئا واحدا: «هل خطف صاحب اللواء فتاة من خدرها ؟ هل هدم مصطفى كامل أركان الفضيلة؟ هل حارب الإسلام فى مشروعاته الحيوية.. ولا تزد على ذلك شيئا». وهو كلام واضح الدلالة على عمق العداء بين الزعيم والشيخ واستخدام قضية الزواج كأقصى سلاح فى الطعن على صاحب المؤيد، خصمه السياسى اللدود.

أما سعد زغلول فقد ظل يساند الشيخ على يوسف وجريدة «المؤيد» وتطورت هذه المساندة بعد أن صار سعد وزيرا للمعارف، وحين تعرضت المؤيد إلى أزمة مالية عرضتها للتوقف وسارع سعد زغلول إلى إنقاذها، عن طريق المساهمة فى شراء مجموعة كبيرة من أسهم الصحيفة بلغت قيمتها مائة وخمسين جنيها وفى مقابل ذلك ظل الشيخ على يوسف وفيا لسعد زغلول، وينقل إليه أسرار الخديو وتصرفاته التعسفية، ويستشيره فيما ينبغى أن يفعل.

بعد أن هدأت الضجة الإعلامية بصدورحكم فسخ عقد الزواج بين الشيخ على وزوجته صفيه، تدخل أولاد الحلال لتصفية الخلاف بين الشيخ وبين السيد عبدالخالق السادات، فوافق على تزويج ابنته منه بعقد ومهر جديدين، وانتقلت صفية الى بيت الزوجية بعد رضاء أبيها، وتصور الشيخ على أنه قد حقق المرام، وأنه سيلقى السعادة الزوجية التى كان يحلم بها، ولكن حياته تحولت إلى جحيم، وكان أمرا طبيعيا نظرا لفارق السن بينهما، فكان الشيخ يهرب الى مكتبه فى «المؤيد» ليدفن آلامه وشقاءه فى حبر المطابع، وحفيف الورق، وكان المتوقع أن يرى الشيخ فى زواجه رد اعتبار لشخصه، وتصحيح للاهانات التى لحقت به وحطت من شأنه، ولكن الواقع أثبت أنه لم يستطع الخلاص من تلك العقدة، وبينما هو فى عنفوان مجده الصحفى: إذا به يتخلى عن الجريدة والعمل الصحفى، ليصبح شيخ طريقة صوفية. حتى يمحو العار الذى لحق به. وينتمى إلى الطبقة التى تعلق بحبالها ذات يوم.

معارك الفكر

كانت الصحف هى الميدان الذى دارت فيه معارك الأدب والفكر فى القرن العشرين. وشهدت صحف ذلك العصر مساجلات حامية بين المحافظين والمجددين. فى وقت تعرضت فيه الثقافة العربية لتيارات التغريب، ويمثلها المثقفون الذين تلقوا تعليمهم فى المدارس الأجنبية والجامعات الأوربية،. ورفعوا لواء الدعوة إلى الآغتراف من مناهل الثقافة الغربية كى يتحقق للمجتمعات العربية المتقدم والارتقاء، والثورة على الجمود الذى أصاب - فى رأيهم - الفكر العربى، وتسبب فى تخلف الأمة العربية.

عندئذ استشعر المحافظون الخطر، فشهروا أسلحتهم للطعن فى تيار التغريب، وربطوا بينه وبين الهجمة الاستعمارية التى اجتاحت البلاد العربية عسكريا وسياسيا واقتصاديا، وهبوا للدفاع عن الثقافة العربية بأعتبار أنها الوعاء الذى يختزن تراث الأمة، ويشكل كيانها العقلى والأخلاقى والقانونى.

ودخلت الصراعات السياسية والخلافات الحزبية فى هذا المعترك، وصبغت كتابات الأدباء والمفكرين باللون السياسى الذى ينتمى إليه الكاتب، مما ساعد على احتدام المعارك، وهبوطها الى مستوى الخناقات الحزبية، وأبرز مثل على ذلك: المعركة التى دارت حول كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ على عبدالرازق القاضى بالمحاكم الشرعية - وقتذاك - وأحد أقطاب أسرة «عبدالرازق» التى كانت تشغل ركنا اساسيا فى حزب الإحرار الدستوريين. فقام الملك فؤاد بإقالة ممثل الحزب فى الوزارة، وهو عبدالعزيز باشا فهمى، وكان وزيرا للعدل، ورئيسا للحزب، عقابا له على توانيه فى فصل المؤلف من منصبه القضائى.

وكان للخصومات الشخصية دور كبير فى تزكية الصراع بين الكتاب والمفكرين. وهبوط لغة الحوار بينهم، وتبادل الاتهامات والألفاظ المفزعة، مثال ذلك: كان زكى مبارك يتهم طه حسين بأنه كان وراء إقصائه عن منصب أستاذ الأدب العربى بالجامعة ليفوز هو بالمنصب، فجعل زكى مبارك لقمة العيش، محور خصومته مع طه حسين، فيقول:

«ظن طه حسين أنه انتزع اللقمة من فم أطفالي فليعلم حضرته أن أطفالى لو جاعوا لشويت طه حسين، وأطعمتهم من لحمه، ولكنهم لن يجوعوا ما دامت أرزاقهم بيد الله.» والعلامة أنور الجندى يعزو ابتداع أسلوب التهجم والمبالغة فى الهجاء الى شيخ العروبة أحمد باشا زكى، ويقول: كان له أثر كبير فى قيادة هذا الاتجاه، فقد عرف بالعنف

والسخرية البالغة، واصطناع ألفاظ مثيرة، وتأثر بهذا الرجل: طه حسين والعقاد وزكى مبارك، وهم الثلاثه الذين كانوا أعنف كتاب النقد العربى المعاصر.

ومع ذلك لم تكن هذه المعارك الجانبيه لتصرفنا عن متابعة المعارك الأصليه التى دارت بين تيارات الفكر، وكسبت الحياة الأدبية منها الشئ الكثير، وقد استطاع أنور الجندى أن يجمع تفاصيل هذه المساجلات فى كتاب ضخم من (٧٣٠) صفحة عنوانه (المعارك الأدبية فى مصر منذ ١٩١٤ الى١٩٣٩ وقد صنّفها موضوعياً حسب القضايا المثارة وهى:

. معارك الوحدة والتجزئه

. معارك اللغه العربيه

. معارك مفاهيم الثقافه

. معارك الاسلوب والمضمون

. معارك النقد

. المعارك بين المجددين والمحافظين

. معارك نقد الشعر

ولكل معركة رجالها سواء من المؤيدين أو المعارضين، ولكل منهم صحف ومجلات تتبنى أفكاره، وتعرض آراءه على جمهور القراء، وينحاز الناس بالتالى الى هذا أو ذاك حسب ميولهم، وكان الرابح الأخير من هذه المعارك هو حركة الفكر، فتحركت عن جمودها، وسارت فى مجاريها مياه جديدة تذكرنا بالحركة التى ازدهرت خلال العصر

العباسى على أيام الخليفة المثقف «المأمون» وان اختلفت المعارك باختلاف العصور، فلم يكن من المعقول أن يختلف الناس فى القرن العشرين حول مسأله بالغة التعقيد وهى «مسألة خلق القرآن» مثلما اختلفوا وانقسموا فى عصر المأمون. ولكنهم اختلفوا حول تيار التغريب ومن معالمه: التهجم على القومية العربية والوحده العربية ـ مقاومة اللغه العربية والدعوة الى العامية وكتابة العربية بحروف لاتينية ـ مهاجمة الخلافة والاسلام والدين بصفة عامة ـ اتهام العرب بالتخلف العقلى ـ اعتبار الاغريق أساتذة العرب ـ إثارة الشكوك حول الكتب السماوية والحملة على رسول الاسلام ـ الدعوة الى الأدب المكشوف ونقل الحضارة الغربيه بخيرها وشرها ـ

ـ الدعوة الى الفرعونيه... الخ

وسيكون من المفيد لأبناء القرن الحادى والعشرين أن يلقوا نظرة على المعارك التى خاضها آباؤهم من أجل الثقافة والفكر والأدب.

معركة عروبة مصر

بسبب عبارة وردت ضمن مقال للدكتور طه حسين فى جريدة (كوكب الشرق) فى عام ١٩٣٣ : نشبت معركة حاميه الوطيس، أعادت إلى الاذهان ذكرى معركة كتاب (الشعر الجاهلى) الذى أصدره طه حسين قبل ذلك بسبع سنين وأثارت ضده زوبعة عنيفة، أما العبارة التى استفزت حماة القومية العربية فتقول: «إن المصريين قد خضعوا لضروب من البغض وألوان من العدوان، جاءتهم من الفرس واليونان ، وجاءتهم من العرب والترك والفرنسيين» . ومعنى ذلك أنه وضع العرب فى سلة واحدة مع الدول الأجنبية الاستعمارية التى احتلت مصر فى العصور القديمة والحديثة .

ثارت ثائرة أنصار الوحدة العربية فى مصر والبلاد العربية وصدرت قرارات عنيفة ضد طه حسين ففى سوريا قررت الجمعيات الأدبية والثقافية «تطهير» المكتبات من كتبه، بل وأحراقها مثلما يفعل

النظام النازى مع المعارضين، واتصلوا بالجمعيات المماثلة فى الأقطار العربية لاتخاذ نفس الموقف وقالوا إن هذا العقاب سيصدر ضد أى كاتب مصرى يطعن فى العروبة، ويشجع الروح الشعوبية.

ورغم أن فتحى رضوان كان معارضا لطه حسين فى نزعته الإقليمية، إلا أنه عارض مسألة إحراق كتبه، وكتب بوجهة نظره الى صحيفة (فتى العرب) الدمشقية. فقالت الصحيفة انها ستعمل على منع كتب طه حسين فى البلاد العربية لمخالفتها روح القومية المنتشرة فى بلاد العرب، وتهجم صاحبها على حرمة التاريخ، وعيبه فى ذكريات الأجداد الذين حرروا العنصر المصرى من سباط الفاتحين، وأعطوه لغة قوية، وديانة سامية، وحضارة لاتقاس بها حضارات العالم القديمة. .

استفزت هذه العبارات شعور جريدة (البلاغ) المصرية فقالت: كنا نحب للزميلة السورية أن لا يزل قلمها، كالذى قالته عن تحرير العنصر المصرى من سياط الفاتحين، فإن السخط على زلة طه حسين لا يبرر قذف الأمة المصرية فى وجهها بهذه العبارة. اتسع ميدان المساجلات بين مؤيد ومعارض. وكان سلامة موسى على رأس المؤيدين لطه حسين، فكتب إن دماء الفراعنة تجرى فى عروقنا جميعا، فى حين أنكر زكى مبارك وجود الثقافة الفرعونية وصلاحيتها للحياة ، أما أبدع ما كتب كما يؤرخ انور الجندى، أثناء المعركة فكان مقال عبدالرحمن عزام فى (البلاغ) فوصف طه حسين بأنه رجل له فى العلم بالتاريخ مقام معلوم، وطلب منه أن يتفضل فيذكر بعض الحوادث التى تحشر

العرب المسلمين فى زمرة البغاء المعتدين؟ لأن العرب استخلصوا مصر من البغى والعدوان البيزنطى. وجاءوا إليها بدين جديد أصبح دين الكثرة العظمى من أهلها، هذا الدين سوى بين الراعى والرعية، وقرر أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى، ولقد قبل المصريون دين العرب ولسان العرب وحضارة العرب وأصبحوا عرباً فى طليعة العرب، والذى نعلمه عن انساب أقاليم مصرية بأكملها أن اكثرية دماء أهلها ترجع إلى العرق العربى، والواقع الملموس أن مصر الآن من جسم الأمة العربية فى مكان القلب، فهل يتفضل الدكتور طه حسين ببيان المعنى الذى يريده حينما يقرر أن العرب فنوا فى مصر، وانهزموا (!!) وتساءل عبدالرحمن عزام.. ماذا بقى من أشور وفينيقيا والفرعونية وقرطاجنة غير ما إبقاه العرب فى انفسهم وغير الأمة الحية التى تمتد الآن من المحيط إلى المحيط ونحن إنما ننتسب بصفة عامة الى تلك الحبة الوارثة للأرض المبثوثة.

ويبدو أن طه حسين آثر الصمت أمام هذه الهجمة المضرية، حتى قال صاحب البلاغ عبدالقادر حمزة، كل امرئ يخطىء ويزل، ورد المخطىء الى الصواب ليس عن طريق حرق كتبه أو إخراجها من المكتبات، فلا يدحض الرأى إلا بالرأى، والآراء تتنازع ولا يبقى منها إلا الأقوى والأصلح ، وما عرفنا كاتبا اضطهد - ولا يحق - إلا كانت النتيجة عكس المرام. وليس معه حق أحد إذ يمنع كاتبا من الآدلاء برأى ولو كان خطأ، ولكن من حق قادر على ذلك أن ينقد هذا الرأى بالحجة القائمة والبرهان اللائح، ولن يضير العرب فى كثير أو قليل أن

يخطىء طه أو غيره فى حقهم، ولكن يضير العرب اللجوء الى اسلوب المصادرة والحرق.

وكانت هذه الكلمات دستورا رسم للآدباء والمفكرين حدود وتقاليد وآداب المعارك التى يدخلونها.. حرية المقارعة والمساجلة بالحجج والبراهين وليس بالطوب والقذائف.

ثقافتنا: شرقية أم غربية

فى ثلاثينات القرن العشرين نشبت معركة حول الثقافة العربية.. وهل هى شرقية أم غربية.. وبدأت المعركة بمقال كتبه توفيق الحكيم فى «الأهرام» نفى فيه وجود ثقافة عربية. وادعى عجز العرب عن بناء حضارة شرقية.. ومن ثم دعاهم الى أن يفعلوا ما فعله الأتراك بزعامة كمال أتاتورك، وهو الانخراط بكل بساطة فى سلك الأمم الأوربية». وأثارت الدعوة شجون حماة الثقافة العربية فهبوا للدفاع عن كيان الأمة العربية من أن يذوب فى خضم الحضارة الغربية. وأخذوا على الحكيم نكرانه لما حققته الحضارة العربية فى العلوم والفنون والآداب والفلسفة.

وكان من أشد المعارضين لدعوة الحكيم: مفكر لبنانى مسيحى اسمه فيلكس فارس. واتخذ من مجلة الرسالة التى كان يصدرها أحمد حسن

الزيات، ميدانا لتفنيد آراء الحكيم فقال: أن الاستاذ توفيق الحكيم لا يجهل أننا إذا عجزنا عن خلق الحضارة الشرقية، وعن إحيائها بتعبير أصح: فإن انخراطنا فى سلك الامم الأوربية، لا يوصلنا إلى الهدف الذى تتجه إليه الأمة التركية، ولما تصل إليه، فإن بين الفطرة التركية والفطرة العربية من القرون: ما لا يصح معه أن يتخذ العرب الترك قدوة لهم، لذلك لا أحسبنى مخطئا إذا ذهبت إلى أن الأستاذ الحكيم لم يخير العرب بين حضارتين: إلا ليثبت لهم أن فى أعماق قلوبهم «شرقاً» لا حياة لهم إلا بالاتجاه إليه، واستجلائه وراء ظلمات الأحقاب.

(جوهر الحضارة العربى)

وشحذ فليكس فارس كل أسلحته لاجلاء جوهر الفطرة العربية فقال أن العرب عندما رقوا العلوم ونشروها وأوجدوا أهمها: إنما عملوا بعقليتهم الشرقية العربية، وأننا لسنا بحاجة إلى تقليد الغربيين فى أسلوب تفكيرهم لنجاريهم فى مضمار العلوم، ومن العرب اليوم فى أوربا وأمريكا ومصر وسائر الأقطار العربية علماء فى كل فن يفتخر العالم بأسره، غربه وشرقه بسعة اطلاعهم وعبقريتهم. وما بلغ هؤلاء الأعلام مقامهم. إلا بعقليتهم العربية.

وأوضح فارس الفرق بين العلم والثقافة فالعلم مشاع لكل الأمم والأفراد، فهم يتفقون على ما بينهم من اختلاف بعيد فى نظرات الحياة، فى حين أن الثقافة مستقرة فى الشعور فهى (دماغ فى القلب) ولا قانون لها لأنها راسخة فى الفطرة، والفطرة فى الفرد، كما هى فى

الأمم ميزة خاصة فى الزوق، واستعداد خاص لفهم الحياة والتمتع بها، فإذا كان العقل رائدا لبلوغ الحاجة: فليست الفطرة إلا القوه الممتعة للإنسان بتلك الحاجة بعد الظفر بها، وكما إن لكل فرد ثقافته التى تتجلى فطرته فيها هكذا لكل أمه ثقافتها المستقرة فى فطرتها، فلا ريب إذن فى أن سعادة الفرد والمجموع، وشقاء كل منهما: يتوقفان على ملائمة الحياة أو عدم ملاءمتها لما فطرا عليه، وسواء أكان المرء مسيرا أو مخيرا فى إرادته وأعماله: فإنه على الحالين غير مخير فى ذوقه فى الحياة وفى لذته وألمه منها، فكل فرد خالفت طريقة حياته ما استقر من الحوافز فى فطرته: يفقد الشعور التام بتلك الحياة ويتعرض للسقوط فى المعترك، وهكذا الأمم إذا ضرعت نفسها وسارت فى حياتها على ما يؤلم فطرتها، فإنها تفقد قوة الارتقاء بذاتها، فتميت شخصيتها دون أن توفق إلى الانبعاث فى شخصية تستعيرها من سواها.

(خصوصية الثقافة)

وقال فليكس فارس: إن الأخذ بالعلوم عن أى شعب: لا يستلزم مطلقا اقتباس طرق حياته فى الأسرة والمجتمع، وتقليد ذوقه وسكناته وحركاته، فإن العرب عندما احتضنوا العلوم الاستقرائية عن اليونان: لم يأخذوا الفطرة اليونانية ولا ذوقها ولا معتقداتها ، كما أن أوربا عندما تلقت هذه العلوم عن العرب: لم تتعرب بل بقى كل شعب فيها محتفظا بثقافته، هذا فضلا عن أن فى الغرب ثقافات قد يراها من يرتبها من بعيد على شىء من التقارب، غير أن من يدرسها عن كثب ليدهشه ما

بينها من فروق تتناول صميم الذوق والعقيدة والشعور، فأى الثقافات يشار على الشرق بأن يتبع؟

وبينمـا المعـركـة بين توفـيق الحكيم (المسلم) وفليكس فـارس (المسيحى) على أشدها: دخلها عنصر ثالث هو إسماعيل أحمد أدهم (الملحد) ومؤلف الكتاب الشهير: «لماذا أنا ملحد» فازدادت نار المعركة لهيبا.

فليكس فارس

من يكون فليكس فارس؟ ذلك المفكر المسيحى اللبنانى الذى تصدى للدفاع عن الثقافة العربية التى أنكر توفيق الحكيم وجودها. ودعا إلى التوجه نحو أوربا على نهج كمال أتا تورك، لم أكن أعرف الكثير عن فليكس فارس، ولذلك لجأت الى موسوعة «الأعلام» لخير الدين الزركلى ، فوجدته يقول عنه:

(فليكس بن حبيب بن فارس أنطون، كاتب، من الخطباء، له نظم حسن، ولد فى عام ١٨٨٢ فى إحدى قرى، المتن» بلبنان، وتعلم الفرنسية فى «الشويفات» وأصدر فى بيروت جريدة «لسان الحال» سنة ١٩٠٢ أسبوعية ، ثم يومية، وسافر إلى الأستانة ، وعاد منها إلى حلب مدرسا فى مدرستها السلطانية، وفيها تعلم التركية، وسافر إلى أمريكا سنة ١٩٢٠ م، وعاد فاستقر فى الاسكندرية رئيسا للترجمة فى مجلسها

البلدى، واستمر إلى أن توفى بها عام ١٩٣٩، أفضل ما كتب: رسالة المنبر إلى الشرق العربى،، وله كتب صغيرة منها، ارتقاء ألمانيا الوطنى،، و «النجوى الى نساء سورية، ومجموعة الفكاهات، ورواية الحب الصادق،، وترجم عن الفرنسية «رولا، من شعر ألفريد دى موسية، واعترافات فتى العصر، وهكذا تكلم زرادشت،.

وقال الزركلى إن فليكس فارس بعث إليه بترجمة حياته من حلب سنة ١٩١٧ مرفقا به صورته وكتب أسفلها هذين البيتين:

هو وهم الخلود يطلبه الناس اختلاسا فى عاصفات الحياة

ليس يسقى غير المبادئ فهذا رسم ميْت يهدى إلى أمواتِ

وقد شهدت صفحات «الرسالة، فى عام ١٩٣٨ م حوار فليكس مع إسماعيل أدهم الذى دخل دائرة المساجلات الفكرية بين دعاة التغريب الشامل، وبين حماة الثقافة العربية، ولخصها أنور الجندى فى كتابه عن المعارك الأدبية على النحو التالى:

أدهم: إن للشرق روحه الذى يستوحيه أبناؤه نزولا على فطنتهم، وللغرب منطقة الذى يستنير به أفراده نزولا على وحى مشاعرهم.

فارس: العلم مشاع بين كل الأمم، وما اخترع الغرب المنطق، ولا هو أوجد التفكير العلمى لنعترف له بثقافة قوامها التفكير ينفرد بها بين شعوب الأرض.

أدهم: إن الحياة العلمية التى يحياها المصرى الآن تجرى على غرار حياة أسلافه الفراعنة.

فارس: أنا لا أرى فى حياة المصريين اليوم أثرا من الحضارة الفرعونية، لا فى الحياة العلمية، ولا فى الحياة الأدبية، كما لا أرى شيئا من حضارة الفينيقيين فى أهل سوريا ولبنان، وما تبقى من هذه الحضارات المستغرقة فى القدم إلا أهرام ومعابد وأعمدة وقبور.

أدهم: يجب تلقيح الذهنية المصرية بثقافة غربية تبث الحياة فى الأمة.

فارس: إن السبب الذى يراه الناظر موجبا لهذا الانحراف الى ثقافة الغرب: قائم على اعتقاده بأن الثقافة العربية ذاتية، تدفع بالإنسان الى الذهاب مع الخيال، فردية تشجع على الانعزال عن المجتمع، وإن ثقافة الغرب تستجلى حقائق الحياة بالتفكير الفلسفى والبحث العلمى.

ويفند فارس ما يقال بأن عصر العلم فى أوربا بدأ بثورة نفر من رجال القرن السادس عشر على العقلية التى تبحث عن العلل الأولى: فسيروا سنن الطبيعة وأقاموا عليها المدنية مستمدة من الذهنية الآرية، والصحيح أن أصحابنا الآريين كانوا يغطون فى نومهم، ولم تراود أحلامهم آلاف الأساطير التى يراها الناظر غنية بالرمز والفن، وما هى فى نظر الشرقى العربى إلا دلالة فقر مدقع فى التفكير، وجموح خيال لم يدرك شيئا من الوحدة التى تقوم عليها حقائق الأشياء.

وفى هذه الاثناء، كانت الحضارة العربية تحتضن العلوم القديمة، وهى ممثلة بأرسطو فى الاستقراء، وبأفلاطون فى القياسات، وما كانت هذه العلوم فى ذلك العصر إلا فى طور التدرج الأولى، فاستولى عليها التفكير العربى، لا ليدفعها إلى الارتقاء فحسب، بل ليستنبط ويعدل ويوجد.

ثم يقول فليكس: إن العرب حين اقتبسوا من تراث اليونان ما يعززون به تفكيرهم العلمي: لم تستهوهم الثقافة اليونانية، ولا حضارتهم الأدبية، إذ أحسوا بالمهاوى السحيقه بين حضارة اليونان الاجتماعية، والحضارة التى كانت تتمخض فى شعورهم وتقديرهم للحياة ، فأعرضوا عن شعرهم وموسيقاهم ونظمهم، لذلك لا تجد فى شعر العرب شيئا من إبهام وتشاؤم، وقد تفوق العرب فى علوم الآلات وتوازن السوائل ونظريات الضوء والابصار والهندسة وعلم البيئة فوضعوا علم الكيمياء، واكتشفوا أجهزة للتقطير، وأوجدوا الأسطرلاب، ووضعوا جداول الأوزان النوعية والأرياح الفلكية، وهم واضعو علم الجبر والارقام، وما كاد ينقضى القرن الثامن الميلادى حتى كان هارون الرشيد يسير شوطا بعيدا فى مضمار الرقى ليسلم إلى المأمون المدينة (بغداد) التي اصبحت عاصمة العلم الكبرى.

أبعد هذا يصح لقائل أن يقول أن رسالة الشرق روح وشعور، وأن رسالة الغرب عقل ومنطق؟ إن مناظرى - إسماعيل أدهم - قد ضيق عدسة منظارة، وحدق على مجال من الزمان لا يزيد على قرن ونصف قرن متطلعا إلى الرقى العلمى فى طوره الأخير، فخيل له أن الغرب قد أوجد وأبدع بعقليته الآرية، ثم التفت الى الشرق العربى وهو خارج محطما من عبودية نيف وأربعة قرون فحسب أن السامية العربية هى ما لمحه من عدسة منظاره.

معارك العصور الوسطى

إذا كان من الطبيعى أن تكون المعارك الفكرية والقلمية من سمات العصور الحديثة، بعد ظهور المطبعة والصحف، إلا أن الحياة الأدبية فى عصر المخطوطات شهدت هذا النوع من المعارك بين كبار الأدباء والشعراء والكتاب، وكانوا بمثابة رجال الصحافة والإعلام فى عصرنا فنرى منذ فاتحة القرن التاسع الهجرى اندلاع هذه المعارك الأدبية فى مصر، وروى لنا تاريخ هذا العصر صورا من انقسام المجتمع القاهرى إلى شيع وطوائف تنحاز كل منها إلى أديب معين، أو تيار بذاته، وتتصدى لخصومه بالهجوم والتطاول، وفاضت حلقات النقد بآثار هذه الخصومات، ولكنها كانت تعمل على تقوية نزعة الجدل والنقد، وكان المستفيد فى النهاية هو الحركة الأدبية.

وكما كانت الضغائن الشخصية، والمصالح الفردية تقف وراء المعارك الفكرية فى عصرنا الحديث.. كان الصراع حول المناصب

الكبرى، والتقرب من السلاطين والأمراء، من أسباب نشوب المعارك بين رجال العلم والأدب والفقه، مثال ذلك المنافسة الشهيرة بين العلامة ابن خلدون، والقاضى البساطى حول منصب قاضى قضاة المالكية.. فكان كل منهما يشغل المنصب لبعضة شهور بالتناوب، وكذلك الخناق بين المقريزى وبدر الدين العينى، وكل منهما مؤرخ ضليع، ولكنهما كانا يتصارعان على منصب «الحسبة» فى القاهرة، وكان لكل من هؤلاء الأقطاب المتنافسين تلاميذ وأنصار، وكان هذا شأن معظم المعارك التى نشبت بين جمهرة الأدباء والكتاب والفقهاء حول ولاية القضاء والإفتاء والتدريس والكتابة فى الدواوين... إلخ.

ولم تكن هذه المعارك الكلامية تخلو من الشطط والإسفاف وتبادل التهم والأوصاف المقذعة، وكان عمدة هذا الأسلوب الجارح شمس الدين السخاوى المحدث والمؤرخ والناقد اللاذع الذى بلغ فى فن النقد درجة الابتكار والبراعة فى التصوير والتحليل، ولكنه كان يستخدم قوارص الكلم فى هدم خصومه إلى حد الأسفاف، وظهرت هذه النزعة الهدامة فى كتابه الشهير «الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع» وترجم فيه لحياة أكابر هذا القرن، ولكن أحدا لم يسلم من لسانه وتشنيعه على هؤلاء الإعلام، وقد وضعه المؤرخ محمد عبدالله عنان فى مرتبة الأديب الفرنسى المشهور «سانت بيف» وإن كان السخاوى قد سبقه فى أسلوبه الهدام بأربع قرون، وكما تناول «سانت بيف» مجهود كتاب عصره بالتحليل العميق. والنقد الصارم، فكذلك فعل سلفه «السخاوى». وكان كلاهما كثير التنقيب عن مواطن الضعف، شديد الوطأة، ميالا

إلى الهدم، فيغدو خبيثاً، ظاهر التحامل، لاذع التجريح، وكما كان الأديب الفرنسى أستاذ النقد الأدبى فى القرن التاسع عشر وكان يقود الحركة الأدبية ويطبعها بطابعه القوى، فكذا كان السخاوى محرر النقد الأدبى فى عصره، بل هو - فى نظر المؤرخ عنان - أستاذ النقد فى الأدب المصرى كله، وعلى مدى نصف قرن ظل يتزعم جناحا قويا من الحركة الأدبية ويثخن بقامه طعنا فى معظم أقرانه ومعاصريه، وأخيراً تمثلت فى الأديب المصرى والأديب الفرنسى عاطفة الزهو والاعتداد بالنفس، فالأول جعل من نفسه أستاذ عصره، وحكما على غيره والثانى صور نفسه على أنه رائد النقد الوحيد فى الأدب الفرنسى، ولم تكن ثمة آداب حقيقية قبل ظهوره ولا كان نقد صحيح.

شيخ العروبة

كان الأديب والسياسى المعروف أحمد زكى باشا، قطب الرحى فى جميع المعارك الأدبية التى دارت على صفحات الصحف فى الثلث الأول من القرن العشرين، وحتى وفاته فى عام ١٩٣٤، وقد وصفه أمير البيان «شكيب أرسلان» بأنه «كان يقظة.. فى إغفاء الشرق، وهبة فى غفلة العالم الإسلامى.. وحياة... فى وسط ذلك المحيط الهامد» ولم يجاوز أرسلان الحقيقة لأن أحمد زكى - إلى جانب اهتمامه بمسائل الأدب والنقد - كان مهموماً بقضايا العالمين العربى والإسلامى، حتى اكتسب لقب «شيخ العروبة». وصارت داره تسمى «بيت العروبة».

وكان أحمد زكى مشهوراً بالنقد اللاذع. والهجوم العنيف علي خصومه. حتي أن مؤرخ الأدب أنور الجندى يعد طريقة زكى باشا فى السجال: هى جزء من تاريخ الحركة النقدية فى الأدب العربى

المعاصر، وأن الكتاب الذين عرفوا بالنقد الساخر الملئ بالضربات: هم أتباع لمدرسة أحمد زكى وتلاميذ له ولاسيما طه حسين وزكى مبارك وغيرهم الذين تلقوا عنه فى الجامعة المصرية القديمة.

ومن تلك المعارك الحامية معركة (خم النوم) عندما كتب زكى مبارك مقالا عن شرح (نهج البردة) التى ألفها شيخ الأزهر سليم البشرى، فقال أن كاتبها الحقيقى هو ابنه الأديب المعروف الشيخ عبدالعزيز البشرى، ورغم أن أحمد زكى باشا لم يكن طرفا فى القضية: إلا أنه (حشر) نفسه بين تروسها، وسخر من هذا الاستنتاج، وكتب فى (البلاغ) فى ١٢ ديسمبر ١٩١٢ مقالا فى شكل رسالة إلى (الطفل الميمون) ابن زكى مبارك استهلها بقوله: أنت تكتب باسم أبيك، فتارة تخطئ، وتارة تصيب، فأنت تزعم بالأمس فيما كتبته بإمضاء أبيك أن شيخ المحدثين وشيخ الأزهر قد رضى بالكذب وبالزور وبالبهتان بأن يوضع اسمه على شرح نهج البردة، بأنه ناسج بردته، وتزعم أن هذا الشرح مكتوب بقلم ولده الكاتب الأبرع الأشهر الأستاذ عبدالعزيز البشرى، ولو أنك سألت أباك الدكتور زكى مبارك الصادق المصدوق، لقال لك أنك جرئ على الحق، وأنك مستهتر بالتاريخ. فإن أدبك أبوك بالأدب الذى أخذه عن أشياخه (ولى معهم سهم ضئيل) أيام كانت العمامة البيضاء تتوج رأسه المبارك بالعلم والأدب، ثم رجعت تطلب منى الإفاده بأن تجلس بين يدىّ كالطالب المستفيد المتأدب فى جلسته وفى عباراته: فإنك تكون فى هذه الحالة - لأنعم عليهم بالجواب.. وإلا فخير من مجاوبتك السكوت.

واضطرب زكى مبارك من هذا الهجوم المفاجئ فكتب يقول: أنى أعرف أنى أسرفت فى الثرثرة، وكان لابد أن يتقدم كاتب جرئ فيقول: أسكت فقد أسرفت، وكان ذلك الكاتب الجرئ هو العلامة المفضل أحمد زكى باشا، الذى لم يعد الصواب حين قال: أن هناك إنسانين: أولهما زكى مبارك، وثانيهما نجل زكى مبارك، وأنا واثق أعرف هذا من نفسى، فقد يتفق فى أحيان قليلة جدا أن أكتب فأجيد، ثم أكثر من العذر واللغو والفضول، حتى لأحب أن أزيل مقالاتى بإمضاء أحد أبنائى، ولكنى أشفق أن أحملهم تبعة ما أكتب حين يفوتنى أن أوفق إلى القول الفصل والرأى الحصيف.

وقال: لقد رأيت فى مقال زكى باشا عنفا، وأشار على البعض الأصدقاء بأن أقابله بخطاب أقسى وأعنف، ولكنى تذكرت أن زكى باشا شيخ كبير، ومن حقه أن يلهو بالإساءة إلى أبنائه الأوفياء، ثم تذكرت أخيراً أن الواجب يقضى بأن أشغل بتحقيق هذه الحالة تحقيقاً علمياً بعيدا عن لغط القيل والقال.

وبعد ذلك احتدمت المعركة بين الأديبين الكبيرين وتطورت إلى مساجلات عنيفة.

«زينب»

عندما يأتى ذكر الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى الصحف المعاصرة، فأن اسمه لايذكر مقرونا بنشاطه السياسى العريض، فقد كان زعيماً لحزب الأحرار الدستوريين ورئيساً لمجلس الشيوخ، ورئيساً لتحرير جريدة «السياسة» . ووزيرا للمعارف فى وزرات ما قبل ثورة يوليو. وكثيراً ما تخلط الصحف بينه وبين الصحفى المعروف محمد حسنين هيكل. أمد الله فى عمره، حتى أن محافظة القاهرة وقعت فى هذا الخلط، حين أرادت تكريم هيكل باشا فأطلقت اسمه على أحد شوارع مدينة نصر، ولكنها كتبت اسم «حسنين» بدلا من «حسين» . ولما لبى نداء ربه فى ديسمبر ١٩٥٦ لم يشعر بوفاته أحد. مثل غيره من الساسة القدامى الذين عفت ثورة يوليو على آثارهم. وختمت على تاريخهم، ولا أذكر أن أحدا نعاه باستثناء الكاتب أحمد بهاء الدين، فقال عنه أنه

كـان عـفاً فى أسلوبه، راقياً فى تعابيره حـتى أنه لما أراد فى إحدى قصصه أن يصف فتاة من بنات الليل: فقال عنها أنها «ذات عفة جريحة».

●● ومع ذلك لايزال اسم «هيكل» مدويا عند قراء الأدب والفكر والمشتغلين بالدراسات الإسلامية، ولاتزال كتبه تطبع كل سنة وتلقى الرواج والذيوع مثل: حياة محمد، وفى منزل الوصى، والصديق أبى بكر، والفاروق عمر.

و«ذو النورين» عثمان بن عفان، وسلك هيكل باشا فى تأليفها مسلك المناهج الغربية التى تقوم على حرية البحث والاستنباط، ونأى عن الأسلوب التقليدى الذى يعتمد على النقل عن الكتاب القدامى، وقد استهل هذه الدراسات بكتابه . (حياة محمد) فى عام ١٩٢٦ وتناول فيه السيرة النبوية على هذه القاعدة الجديدة، وخشى أن يلقى الرفض من جانب المحافظين والمقلدين، فلجأ إلى أحد أعلام الفكر الدينى، وهو الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر، ليكتب مقدمة الكتاب، فأشار به إشادة عظيمة، وبذلك نجا الكتاب ومؤلفه من الهجوم.

وللدكتور هيكل مؤلفات فى الفكر السياسى استقاها من إيمانه العميق بالديمقراطية، والحرية بمعناها الشامل الذى يعنى استقلال الرأى والفكر، وحرية الخلاف دون الهبوط إلى بؤرة المهاترات والتعصب الممقوت. أما شهرته عند الجماهير فتعود إلى أنه مؤلف أول قصة عصرية فى الأدب العربى الحديث، وهى قصة «زينب» التى تحولت إلى فيلم فى عصر السينما الصامتة، وقامت ببطولتها السيدة بهيجة

حافظ، ثم أعيد إخراجها فى عام ١٩٥٣ وقامت بطولتها السيدة راقية إبراهيم وأخرجها الرائد السينمائى محمد كريم.

كانت «زينب» باكورة الإنتاج الأدبى للدكتور محمد حسين هيكل، وقد كتبها أثناء إقامته فى فرنسا، وقد ذهب إليها فى عام ١٩١١ للحصول على درجة الدكتواة فى القانون من جامعة باريس. وإن كان بعض نقاد الأدب لا يضعونها فى مرتبة الريادة للأدب القصصى لأنها فى رأيهم صورة وصفية للريف المصرى أكثر منها قصة تتوافر فيها شروط الفن القصصى كما تلقيناه من الآداب الغربية، ومع ذلك تظل قصة «زينب» راسخة فى وجدان القراء لما تحتويه من وقائع وأحداث تصور حال الريف المصرى وما كان يعانيه من تخلف وظلم، انعكس على حياة الفلاحين وهبط بهم إلى مستويات متدنية فى البؤس والفقر والمرض والجهل.

●● والأمر المثير للدهشة أن « هيكل» لم يذكر أنه مؤلف القصة فى طبعتها الأولى، واكتفى بذكر أنها من تأليف «مصرى فلاح». وكأن كانه يشعر بالحرج إذا أفصح عن اسمه وهو يقدم لقراء العربية قصة أدبية عاطفية، بينما كانت مهمته فى باريس دراسة القانون، فيتهمه أهله بالانصراف عن الهدف الذى ينشدون، وتحملوا من أجله نفقات بعثته إلى فرنسا.

● والذى يهمنا من رواية «زينب» تلك النزعة العاطفية التى شدت المؤلف إلى عهد الصبا، ومواقع الحداثة فى قريته الصغيرة (كفر غنام). فذهب إلى عاصمة النور وفى قلبه عاشت القرية حية نابضة.

يشده الحنين إليها فيعكف على الورق ليصب فيه ما يعتمل فى نفسه من ذكريات الطفولة، الحقول الخضراء التى تمتد على مرمى البصر، والفلاحون يغوصون بأقدامهم العارية فى الطين، وبنات القرية يتبخترن على ضفاف الترعة وعلى رؤوسهن الجرار للتزود بالماء وبينهن «زينب» ذات الوجه الصبوح مثل نوارة القطن قبل أن تصاب بالسل اللعين فلا تجد من ينقذها.

● «زينب» هى قصة شباب «هيكل» اجترها وهو فى الغربة، فكانت كما قال عنها: أراها تمثل شبابى تمثيلا صحيحا، وإن فيها لذلك كثيرا مما أحب، سواء لأنه دخل عالم الذكرى حتى لأعجز عن استعادته، أو لأنه يمثل أحلام الشباب وخيالاته مما أبسم له اليوم، ولأنه بعض عزم الشباب ومضائه، هذا العزم الذى لا يعرف المستحيل، بل يعرف كيف يتغلب على كل مشقة، ويذلل كل عقبة، ويستسهل كل صعب، ويحقق كل خيال، أو لأنه يشدو بموسيقى الصبا الحلوة العذبة المنبعثة من كل موجود فى الأرض أو فى السماء، والتى تتغنى بأهازيج الحب والوجد، كما يعرفها الصبا خالية من الفواجع، طائرة على أجنحة من الأمل إلى جنات فيحاء كل ما فيها ورد وريحان وصور، بل أن لفجائع الشباب لشعراً له روعته وموسيقاه، هذا وغيره من صور الصبا المرسومة فى «زينب» يمثل شبابى، ولذلك أحن اليوم إليه حنين القلب إلى مثوى محبوب.. ذهب ولن يعود».

الدكتورهيكل . صحفيا

كان الدكتور محمد حسين هيكل باشا متعدد المواهب والاهتمامات، وفضلا عن كونه أديبا وسياسيا وفيلسوفا.. كان صحفيا من طراز فريد، فهو يؤمن بحرية الرأى لخصمه، بنفس الدرجة التى يراها لنفسه، وهو يمقت التعصب للرأى، ويراه دليل ضعف، لأن التعصب يحجب عن العقل رؤية آفاق أخرى تضيف إلى الحقيقة أبعاداً جديدة، وقد تأصلت هذه النزعة التحررية فى «هيكل» منذ شبابه الباكر، متأثرا بأفكار أستاذه وقريبه أحمد لطفى السيد باشا صاحب القول المشهور: إن اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية، ثم زاد إيمانه بالحرية بعد سفره إلى فرنسا ومعايشته للتقاليد والممارسات التى تأصلت فيها منذ الثورة الكبرى. وصادف يوم وصوله باريس احتفال الفرنسيين بعيد الحرية وسقوط الاستبداد، «فرأيت حرية الأفراد وحرية الوطن مجسمتين أمام عينى على نحو لم آلفه فى وطنى قط».

فى فرنسا، انكشفت أمام الشاب القادم من وطن محتل يتحكم فيه ويحكمه كرومر وكيتشنر: ألوان من الحياة تفسح أمام النظر آفاق التفكير وتزيد الإنسان إيمانا بحرية العقيدة والرأى، وبغض التعصب الذميم، وأن أول واجب للإنسان أن يديم البحث عن الحقيقة، ولا يكتفى بما يظن أنه وصل إليه منها، «بل يجعل دأبه تقليب هذا الرأى الذى وصل إليه، فينفى عنه ما يعلق به من زيف، ويرى من خلاله آفاقا جديدة لهذه الحقيقة العظمى فتتراءى لنا من وراء الحجب. فيبهرنا ضياؤها، ونقف أمام جلالها خاشعه أبصارنا من فرط هذا النور، وإذا رجعنا إلى أنفسنا، عجزنا عن تصوير ما رأينا واكتفينا منه بما كان أشد لفتا لنظرنا من هذه الحقيقة العظيمة ذات البهاء والجلال».

فى فرنسا وانجلترا رأى هيكل اختلاف الناس فى الرأى والعقيدة، ومع ذلك لا يجنى الخلاف على ما بينهم من مودة، ولا يجعل أحدهم يسفه رأى الآخر، فلما عاد إلى مصر واشتغل بالصحافة، كاتبا ورئيسا للتحرير، ظل مؤمنا بهذه المبادئ، وما أكثر المعارك التى خاضها هيكل، فلا ينبو له لفظ، ولا يترخص فى كلمة، وتنزه قلمه عن الشطط، وعن الخوض فيما لا يليق بكرام الرجال أن يخوضوا فيه، وكما قال الدكتور طه حسين عنه: «لا يستطيع خصم من خصوم «هيكل» أن يقول أنه آذاه بلفظ جارح، وإنما يستطيع خصوم هيكل أن يقولوا أنه آذاهم بمناقشته ومجادلته فى الرأى، والتفوق عليهم فى الخصام والجدال. وقال عنه محمود تيمور: كان زكى النفس، وصاحب النفس الزكية يظفر بجوهر الصداقة فى نفوس الناس، وما أعرف بين معاصريه نظيراً له،

خاض معمعة الخلاف فى الفكر والأدب والسياسة، فظفر بالوفاق على تقديره وإكباره من الساسة والأدباء والمفكرين وعلى كثرة الخصومات. وما كان يتخللها من حدة وعنف. فقد لبث الدكتور هيكل بارئا من الحقد والضغينة، وخرج منها لا يحقد عليه سياسى، ولا يضغن عليه مفكر أو أديب، ذلك لأن معاصريه عرفوا فيه عفة المقال، وشرف الهدف، وما عهدوه متهافتا على ممالأة الأنصار، ولا مسفا فى مناهضة الخصوم، وإنما كان صاحب حجة، ورائد فكرة، وداعيا إلى رأى، ومتطلبا لإقناع.

ويقول كاتب سيرته، الدكتور حسين فوزى النجار: لقد تربع الدكتور هيكل على القمة بين كتاب المقال الصحفى، لا نجد منه لوما ولا تجريحا ولا اتهاما بخيانة أو مروقا، من تلك الاتهامات التى إن نسبت إلى إنسان دون دليل أو برهان: لأقتص له القانون من قائلها، فإذا ثبتت حل على صاحبها العقاب الذى يوجبه القانون، ولا نستغرب بعد ذلك أن سيق «العقاد» إلى السجن فى عبارة قالها، ولم تثبت على الدكتور هيكل كلمة قالها لا يجيزها النقد المباح، وخرج مبرءا من كل دعوى أقيمت عليه.

ولذلك كان خصوم جريدة «السياسة» لا يقلون حرصا على قراءاتها من المشايعين للدكتور وحزبه، وتفسير ذلك هو: حب الناس لقراءة الرأى الآخر مادام قائما على حجة ومنطق وبرهان، وهى الركائز الأساسية التى كان يعتمد عليها هيكل فى بناء مقاله السياسى، وبقدر ما

كان الرجل يؤمن بحرية الكلمة لنفسه، يراها حقا لغيره، وإن خالفه الرأى، وحدث أثناء غيابه بالخارج، أن كتب نائب رئيس التحرير الدكتور محمود عزمى مقالا اعتبره الملك فؤاد عيبا فى ذاته، فقدم للمحاكمة، ورأى الملك أن يكتفى باعتذار الكاتب حتى لا يقال أن هناك معارضا للملك، فما أن عاد الدكتور هيكل من رحلته حتى عرض عليه زكى الإبراشى باشا ممثل القصر، أن تنشر «السياسة» الاعتذار وتنتهى الدعوى، وقرأ هيكل صيغة الاعتذار فوجد فيها اعترافا بخطأ الكاتب، فرفض نشر اعتراف بجريمة قد يكون الكاتب بريئا منها، فقال الإبراشى باشا: تذكر يا دكتور هيكل أن هذه المسألة تتصل بمقام جلالة الملك، وكان رد هيكل: وأرجو ألا تنسى يا باشا أننى فى موقف دفاع عن كرامة الصحافة.

ويروى الأستاذ محمد زكى عبدالقادر، وكان سكرتيرا لتحرير جريدة السياسة، أنه امتنع عن نشر مقال لأحد الكتاب «فلما دخلت على الدكتور هيكل سألنى عن السبب فى عدم النشر، فأبديت له وجهة نظرى، وأصررت على أنه غير صالح للنشر. فقال هيكل:

– ولكنى أرى أنه يجب أن ينشر.

فأجبت فى حدة: لن ينشر

فقال هيكل: لا بأس... سأنضم إليك فى التصميم الأول حتى لا أصدمك فى صلابة رأيك، ولكن انظر.. أنت تشتغل معنا منذ سنتين، وهو يشتغل معنا منذ سبع سنوات، وأنت تخرجت من كلية الحقوق منذ

سنتين، وهو تخرج من الحقوق منذ خمس عشرة سنة... إنه يصلح أن يكون أستاذا لك.. ثم أرجو ألا تجعل نفسك عبدا لرأيك...

وأحسست أن حدتى تذهب، وقلبى ينبض بحب عجيب لهذا الرجل، وأدركت أى طراز من الناس هو؟

قلت: سننشر المقال.

ضحك وقال: على أن يكون برأيك ... وليس برأيى أنا...

قلت: وإنه لكذلك.

الأدب المكشوف
والأدب المستور

تسلل الأدب المكشوف إلى الثقافة العربية مع موجة التغريب وتقليد أدباء الغرب فى تناولهم العلاقات الجنسية بصراحة تسقط معها الحواجز الأخلاقية، وليس معنى هذا أن الأدب العربى القديم لم يعرف هذا اللون الإباحى، فقد عرف العصر العباسى أدباء وشعراء خاضوا فى الموضوعات الجنسية بجرأة متناهية، ولاتزال النسخ القديمة من (ألف ليلة وليلة) تحتوى على موضوعات تخدش الحياء، مما جعل الناشرين المحدثين يعملون على تنقيتها من هذه الشوائب حتى تأخذ طريقها إلى البيت العربى دون حرج.

وفى عشرينات القرن الماضى ثار جدل بين كبار الكتاب حول مشروعية الأدب المكشوف عندما كتب سلامة موسى فى «المجلة

الجديدة، يدعو إلى إطلاق حرية الأديب فى التعبير عن العلاقات الجنسية، لأن الأديب - فى رأيه - عندما يعالج موضوع الحب، فإنه لا يقنع بما هو مألوف من العلاقات الجنسية، بل يسمو بها إلى ما هو أرقى من المألوف، فإذا احتاج فى ذلك إلى صراحة تامة، فيجب أن يمنح هذا الحق، وأن ينال الحرية فى أن يبحث بصراحة كاملة جميع مسائل الجنس، كما يبحث العالم مسائل الغازات السامة مثلا وليس فى الأدب كله ضرر نشأ من الصراحة، يساوى الضرر الذى نشأ من الغازات السامة.

ورأى سلامة موسى أن الأديب الصريح - إذا عالج موضوع الشهوة الجنسية - أمكنه أن يفتح أمام الشباب باب التسامى، أى أن ينقل حبه للمرأة إلى حب للفنون الجميلة، عندئذ تستحيل هذه الشهوة البهيمية إلى العمل للشرف والقوة والمجد، وأن إبعاد المسائل الجنسية عن الأدب، يجعل الذهن أعلق بها، ويفتح الطريق للكاتب المنحط الذى يلجأ إلى الرجس.

وينفى سلامة موسى العلاقة بين الأدب والأخلاق، لأن الأدب كالعلم يجب أن يبقى حرا، ثم إن علم النفس الحديث يبين لنا أن المصارحة فى المسائل الجنسية خير من المواربة، وأن معظم الأمراض الجنسية تنشأ من المجانبة والابتعاد عنها.

ولم تكن دعوة سلامة موسى لتمر هكذا دون مواجهة من كبار الكتاب، وفتحت صحيفة «السياسة» صفحاتها للمناقشة والسجال، وكان السؤال كما يقول المؤرخ الأدبى أنور الجندى هو: هل يضيرنا أن يسمى

كتابنا الأشياء بأسمائها، وأن يصارحوا قراءهم وقارئاتهم بما تنطوى عليه مخادع الزوجين أو الخليلين من أسرار طالما ظلت مكتومة أم أن التعمق فى وصف التفاصيل يضعف أخلاق الناشئين والناشئات؟

وتحت عنوان (الأدب المستور) كتب محمد توفيق دياب يقول: أن وظيفة الآداب والعلوم والفنون، مهما اختلفت موضوعاتها، وظيفة سامية، أو يجب أن تكون سامية، ذلك أن وجهة الإنسانية هى الرقى فى جميع بواطن النفس وظواهرها، وعندى، وعند كثير ممن هم أجل منا مقاما فى عالم التفكير وتصوير قيم الأشياء وغاياتها: أن كل علم الناس وآدابهم وفنونهم يجب أن تكون خداما وأعوانا لمثال الإنسانية المنشود، فأما أن يشذ الأدب عن سائر عناصر الثقافة، وعوامل التهذيب، فيجعل همه مصروفا إلى مجرد (الوقائع الحادثة) مهما تكن تلك الوقائع مزرية بالغاية الإنسانية العليا، مغرية باللذائذ الدنيا، فذلك ما نخالف فيه أخانا الناقد والآخرين أخذه.

ونحن نزعم أن كثيراً جداً من مادة الأدب الحديث منصرف إلى تلك الشهوات واللذائذ الدنيا، فكيف يتفق (الخيال المهذب الراقى) وتلك العريانة المستهترة التى لا تدع للخيال الراقى مجالا؟ ولو وضعنا كل شىء يقع، وضعا فنياً، لاستحالت كتب الأدب إلى حانات معنوية، ومواخير مبتذلة، مقرها رؤوس الكتاب والقارئين، وأشخاصها أولئك (الأبطال) الذين يصورهم لنا (الفن الأمين) غارقين إلى الأذقان فى لجج الشهوات.

وقال دياب: إن القطيعة التى يزعمها بعض الباحثين بين الأدب القومى، والخلق الاجتماعى، قطيعة وهمية لا أساس لها من الواقع، إذ الواقع أن التفاعل بين الأدب والأخلاق متواصل لا ينقطع.

وكتب حافظ محمود فى نفس الصحيفة: إن الأدب الصحيح ليست مهمته أن يصف لنا (مخادع الزوجين أو الخليلين من أسرار) وليست مهمته أن يبلغنا ملابسات العاشقين ومداعباتهم، إن وظيفة الأدب فى الحياة وظيفة فنية قوامها: أن يصور لنا الوقائع الحادثة والحقائق الزمنية، إلى جانب دخائل النفس تصويرا صادقا لايداخله غلو فى شىء، ولا إغراق فى شىء، فالمقصود من الأدب ليس الحكمة أو الموعظة، وإنما هو أن يعطينا صورة لأنفسنا، ويترك للتاريخ صورة من حياتنا، فإذا ما تنطوى عليه مخادع الزوجين صورة من التفسير الإنسانى: حتمت علينا الأمانة الفنية أن نذكرها على ما هى عليه من واقع لا تغيير ولا تغرير فيه، أما أن يكون التفصيل فى هذه المواضيع مما يضعف المقاومة، ويحل المناعة بين الفتيان والفتيات: فهذا شىء ليس متصلا بالأدب، إنما هو موضوع الخلق الاجتماعى فى الأمة.

وكتب عزيز طلحة فى (البلاغ): نشأ هذا النوع من الأدب المكشوف نشأة سهلة، لم يكلف الذين ولغوا فيه عناء ولا جهدا، فليس هو الأدب الذى يستدعى بحثاً بمثابة أو تمحيصاً، وليس هو الأدب الذى يتصل بالدراسات الأدبية بسبب، ويكفى أن تنزل عن شىء من الأخلاق، ويكفى أن نستبيح شيئاً من المجون والاستهتار، ليخرج للناس أسلوبا جديدا ينفر منه الذوق، وتمجه النفس، وإذا أنت حاولت إقناع أصحاب

الأدب الرخـيص بأنهم حين ينشـرون مـثل هذا العـبث فى مـخـتلف البيئات، يجنون على الأدب أولا، وعلى النواميس الاجتماعية، يزعمون أنك قـديم، وأنك مـادمت قـديماً أو من أنصـار القـديم، فأنت عـدو لكل جديد.

واجتذبت معركة الأدب المكشوف ثلاثة من كبار الكتاب هم: عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبدالقادر المازنى، وإبراهيم المصرى.

براعم صحفية

عندما تخرجت فى قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٦١ لم يكن فى الجامعات المصرية لتدريس علم الصحافة سوى هذا القسم، الذى كان من قبل معهداً عالياً يلتحق به حملة المؤهلات العليا، ثم تحول بعد ذلك إلى كلية للإعلام تضم أقسام الصحافة والإذاعة والتليفزيون والإعلان والعلاقات العامة، وتعددت أقسام الإعلام فى الجامعات، فلا تكاد تخلو جامعة من قسم للإعلام.

ومنذ تخرجى انقطعت صلتى بأقسام الإعلام بعد أن جرفتنى موجة العمل، وإن تجددت الصلة بهذه الأقسام من خلال الخريجين الذين أخذوا طريقهم للعمل فى صحيفة «الوفد» إلى أن طلبت منى الدكتورة ليلى عبد المجيد أستاذة الصحافة المشاركة فى تقويم المشروعات الصحفية التى تقدم بها طلبة أقسام الإعلام فى الجامعات المصرية

لإختيار أفضلها للحصول على جوائز قيمة ولم أكد أتصفح المشروعات حتى شعرت بالدهشة الممزوجة بالإعجاب، إذ كانت معظم المشروعات على درجة عالية من حيث الإتقان الفنى، والقدرة على استخدام المعدات الحديثة، وظهر الفارق جلياً بين حالة الجيل الجديد، وحالة جيلنا عندما كنا نصدر مجلة «صوت الجامعة» بجهود ذاتية، وإمكانات متواضعة، ودون إشراف أو رعاية من الأساتذة لأن غالبيتهم درسوا الصحافة نظرياً، ولم يمارسوها عملياً، ولم نعوض هذا النقص إلا بعد التحاقنا بالمؤسسات الصحفية الكبرى.

بعد نظرة الاعجاب بالمتسوى الفنى لهذه المشروعات، بدأت أتفحص مضمونها، فوجدت أن البعض لجأ إلى الاقتباس من الصحف والمجلات السيارة، على طريقة «القص واللزق». وإن كانت هذه الطريقة متقنة من حيث الإخراج، إلا أنها تكشف عن ضعف فى الإبداع، فالقدرات الصحفية لا تظهر إلا من خلال التفكير الذاتى، وليس من خلال الاقتباس والنقل. ولذلك كانت فرحتى كبيرة عندما وجدت بعض المشروعات الصحفية بذلت جهداً خارقاً لصنع مجلة مستقلة ومتخصصة، فأحد المشروعات تخصص فى الكاريكاتير، وآخر تخصص فى الأدب والنقد، وثالث فى الأفراح، ورابع فى السياحة، وخامس عن المرأة، وسادس عن الشباب.. وهكذا بدأ الشباب الخطوة الأولى فى مجالات متخصصة. الأمر الذى يدل على ثقتهم بأنفسهم، لأن التخصص لا يتحقق إلا بعد سنوات من الممارسة العملية.

وتوقفت طويلاً أمام مشروع مجلة عن العمال، وفوجئت بالطلبة والطالبات قد درسوا هذه الشريحة الاجتماعية من كافة نواحيها، ولم يكتفوا بنشر التصريحات الوردية التى تبالغ فى وصف حالة العمال، وإنما نزلوا إلى أرض الواقع، وذهبوا إلى العمال فى مواقعهم، ومنهم من ذهب إلى المناجم والمحاجر لينقل صورة حقيقية عن متاعبهم، ثم ذهبوا إلى المسؤولين فى مكاتبهم ليناقشوهم فى مسببات هذه المتاعب. وبلغوا غاية الجرأة فى النقد، الأمر الذى يبشر بميلاد جيل جديد من شباب الصحافة يملك زمام المبادرة لحل المشكلات الاجتماعية، ولم يتردد فى نقد الأوضاع السيئة طالما أنه يقول الحقيقة. وكم أتمنى على هؤلاء الشباب ـ عندما تتاح لهم فرصة العمل ـ أن لا يتكاسلوا، فيجلسون على مكاتبهم قانعين باستخدام التليفون فى جلب الأخبار أو استطلاع رأى المسئولين. فهذا المرض التليفونى هو الآفة التى أقعدت الصحفيين عن الحركة، وأفقدتهم فرصة الاتصال المباشر بالمصادر الصحفية.

كان من الواضح أن هذه المشروعات تمت تحت إشراف أساتذة من ذوى الخبرة فى المجال الصحفى، وقد ظهرت رعايتهم وتوجيهاتهم بارزة وبصماتهم واضحة، وإن كانت بعض المشروعات قد غلب عليها الضعف، خاصة فى الجامعات الإقليمية، ربما لبعدها عن مراكز الأضواء فى العاصمة، وإن كنت من أنصار الاهتمام بالصحافة الإقليمية باعتبارها المنابر الصالحة للتعبير عن هموم المجتمع خارج نطاق العاصمة.

طبعاً هناك عيوب ونقائض فى هذه المشروعات الجامعية، وأبرزها هبوط مستوى اللغة العربية فى المادة المنشورة، وهو هبوط عام فى الجامعات والمدارس، ولا يعوضه ارتفاع مستوى الفنون الطباعية، والألوان والإخراج، وكان من الممكن تلافى هذا النقص لو أن المطبوعة عرضت على أحد المختصين فى قواعد النحو والصرف فى أقسام اللغة العربية، ومن هذه العيوب خلو بعض المشروعات من ذكر إسم الجامعة أو الكلية التى صدر عنها المشروع.. ولكن هذه الهنات لا تقلل من شأن المشروعات الطلابية التى تمثل ارهاصات جيدة لمستقبل الجيل الصحفى القادم، والذى سيحمل المسئولية وهو جدير بها.

مجلتى

هو إسم المجلة التى أصدرها الصحفى الكبير أحمد الصاوى محمد فى عام ١٩٣٤ لتضاف إلى سلسلة المجلات الأدبية التى انتشرت فى تلك الفترة، وكان يعتزم أن يصدرها بمشاركة توفيق الحكيم تحت إسم «المهرجان» ولكن صديقاً نصحهما بالإقلاع عن هذا الإسم، لأن القراء سوف يقرأونه بضم الميم، يعنى المهرج الصاوى، والمهرج الحكيم. فاستجاب الصاوى للنصيحة، واختار لها اسم «مجلتى» الذى ينم عن الإعجاب بالذات، وكانت تلك من أبرز الصفات الشخصية للصاوى محمد، لدرجة أنه كان ينشر الإعلانات عنها فى حينه: أنت مع الصاوى.. تكسب دائماً!!.

ولكن شهرة أحمد الصاوى محمد لم يكتسبها من مجلته، ولكن من العمود الذى كان يكتبه تحت عنوان «ما قل ودل» ويتصدر الصفحة

الأولى من «الأهرام» ويعالج فيه القضايا الاجتماعية والسياسية بأسلوب مبسط وجذاب. وتولى رئاسة تحرير «الأهرام» بعد وفاة انطون الجميل باشا فى عام ١٩٤٩ إلى أن انتقل إلى دار«أخبار اليوم» فى عام ١٩٥٩ وعين ضمن مجموعة رؤساء تحرير صحيفة «الأخبار» وانتقل معه عموده الشهير، ولكن فى الصفحات الداخلية، إذ لم يكن من طبيعة «الأخبار» نشر مقالات فى الصفحة الأولى، وظل مواظباً على كتابة «ما قل ودل» ولكن العمود فقد بريقه بعد أن تقدمت به السن، واقتصر على التعليق على رسائل القراء..

ونعود إلى «مجلتى» وما أضافته إلى سوق الصحافة الأدبية ومن حسن حظى أننى اقتنيت مجموعتها مجلدة خلال جولة فى سور الأزبكية الذى كان يبيع المطبوعات القديمة بأسعار زهيدة، ومن النظرة الفاحصة تشعر بأن هذه المجلة كانت أشبه بنافذة تطل على الحياة الأوروبية بكل ما يجرى فيها من أحداث سياسية واجتماعية وثقافية، فقد كان الصاوى محمد مغرماً بالحياة الباريسية التى قضى فيها فترة شبابه ويتحدث عن باريس ـ كما يقول عنه مصطفى أمين ـ وكأنه أحد أبنائها، ويكتب عن فرنسا وكأنه الابن الشرعى لچان دارك، ومنه سمعنا لأول مرة عن متحف اللوڤر وعن قصر فرساى، وعن الغسالة التى تجلس القرفصاء فى ميدان الشانزليزيه بمدينة النور.

وحين تتحدث «مجلتى» عن أخبار الحركة الأدبية، فإنها تعنى أخبار الأدباء فى فرنسا وانجلترا وألمانيا والنمسا، وما صدر فيها من كتب حديثة، أو مسرحيات جديدة.. وفى العدد الذى أمامى الصادر فى أول

نوفمبر ١٩٣٥ خبر وفاة الكاتب الفرنسى «هنرى باربوس» الذى وافته المنية أثناء حضوره المؤتمر الشيوعى فى مدينة لينتجراد، ووصفته بأنه زعيم الثورية الاشتراكية فى فرنسا، وصاحب المؤلفات التى رفعته إلى مصاف الأدباء الخالدين، ودافع فى مجلته «موند» دفاعاً مجيداً عن الأديب السورى سليم خيالة عندما نشر كتابه «حميات الغرب» فنفته سلطات الاحتلال الفرنسى من وطنه سوريا.

ومن الأخبار الغريبة التى نشرتها «مجلتى» ذلك الخبر عن الدكتاتور كمال أتاتورك الذى عكف على تأليف كتاب عن سيرة الرسول محمد [ص]، تناول فيه الجوانب الإنسانية فى شخصيته مثل أمانته ورسالته إلى العالم، وغزواته الحربية وقد وصفها أتاتورك وصفاً حربياً دقيقاً يوضح بواعث انتصاره فى بدر وأحد مما لم يتناوله مؤرخ قبله، ويقول الخبر أن فى الكتاب صفحات مطولة عن دور الخليفتين أبى بكر وعمر اللذان أقاما دولة الإسلام على أسس وطيدة، وأن صفحات الكتاب تزيد على خمسمائة صفحة فى مجلدين كبيرين، وسيكون لصدوره رنة كبرى فى الأوساط التى تُعنى بتاريخ الأديان. ولا شك أنها المرة الأول والأخيرة التى أسمع فيها عن هذا الكتاب الذى ألفه أتاتورك. وياليت المهتمين بالتراث يعثرون على نسخة منه لتقف الأجيال الجديدة على فكر الرجل الذى أساء إلى الإسلام فى تركيا.

ومن الأخبار الطريفة التى نشرتها «مجلتى» الاحتفال فى أسبانيا بمرور ٣٠٠ سنة على وفاة الكاتب الدرامى «لوبى ده فيجا» الملقب بشكسبير أسبانيا، ويمضى الخبر فيقول أنه سيحتفل قريباً بتخليد ذكرى

الشارع الأسبانى الشهير «سيرفانتس» صاحب الدراما الخالدة «دون كيشوت»، وسيقوم عميد المثالين الأسبان «ماشادو» بنحت تمثال ضخم يمثل دون كيشوت فوق جواده، يتبعه خادمه «سانكو بانزا» يجر حماره، وسيكون الجواد من الضخامة بحيث يسع فى جوفه متحفاً لأروع آثار «سيرفانتس» ويصعد الزائرون إلى المتحف من خلال سلم فى أحد قوائم الحصان، أما رأس الحمار فتضم مقصفا صغيراً كما يحتوى جوف الحمار على مطعم ظريف.. ولا أدرى إذا كان هذا الخبر قد تحول إلى حقيقة.. علم ذلك عند زوار أسبانيا.

أما اهتمام «مجلتى بالنشاط الثقافى المحلى فقد كان بارزاً، فهى تنشر مقالات لكبار الكتاب طه حسين وتوفيق الحكيم، وتفتح صفحاتها للبراعم الأدبية الجديدة من أمثال «الأديبة النابغة سهير القلماوى» وعلى امتداد عدة أشهر تنشر قصة مسلسلة للأديب الناشئ يوسف السباعى ـ وكان طالباً بالكلية الحربية ـ عنوانها «تبت يدا أبى لهب وتب» .. وتدور حول معاناة المسلمين على أيدى مشركى مكة وكان الصاوى يدير أحاديثاً مع الكبراء والوزراء والعلماء تحت عنوان: «فنجان شاى مع» وينشر لوحات مشاهير الرسامين الأجانب والمصريين، مع رسوم كاريكاتورية للنجوم، ومن بينها رسم ساخر للصاوى نفسه وقد علق عليه ببيت الشعر المشهور: سماعك بالمعيدى خير من أن تراه.

قتيل فى قفص

القارئ المتمرس على قراءة الصحف يكتسب خبرة تؤهله للتمييز بين فنون التحرير الصحفى، ومعرفة الفرق بين الخبر والمقال دونما حاجة إلى دروس من أساتذة الإعلام والصحافة، فيعرف أن الخبر يعنى بنقل الحدث كما وقع بلا زيادة أو نقص أو تحريف، وإلا.. فقد أهم صفاته وهى: الحياد والموضوعية، ويجب أن يحتوى على إجابات على خمسة أسئلة تبدأ بالعلامات المعروفة وهى: متى، وأين، ومن، ولماذا، وكيف.

أما المقال فيُبنى أساساً على «الرأى». وهو حق لكاتبه، ويدور حول قضية أثارت اهتمام الكاتب فأدلى فيها برأيه، على أن يفسح صدره لتقبل اراء الآخرين من الكتاب والقراء وذوى الاختصاص.

ولكل من الخبر والمقال صياغة ومعمار: فالخبر يبدأ بأهم ما وقع من أحداث، ثم بعد ذلك تتوالى التفاصيل، وأساتذة التحرير الصحفى

يشبهون الخبر بالهرم المقلوب، رأسه إلى أسفل، وقاعدته إلى أعلى، على عكس المقال الذى يبدأ بالتفاصيل ثم يأخذ فى الارتفاع حتى ينتهى بالرأى الذى يريد الكاتب إقناع القراء بصحته. وقبل ظهور الصحافة الخبرية الحديثة لم يكن المحررون يأبهون لهذه الفروق، فيكتبون الأخبار بنفس أسلوب المقال، ويسردون التفاصيل المملة ويلتزمون بالتتابع الزمنى، للوصول إلى نهاية الخبر. وهو أهم ما فيه.

وكان مصطفى أمين يسخر من هذه الطريقة العقيمة، ويضرب لنا مثلاً بخبر استقالة رئيس إحدى الوزارات، وهو خبر مهم طبعاً. ولكن صحافة ذلك العصر نشرته على طريقتها. فذكرت أن رئيس الوزراء استيقظ من نومه فى السابعة صباحاً، وبعد تناول الإفطار وقراءة الصحف غادر بيته وتوجه إلى إحدى المستشفيات لزيارة مريض من ذوى قرباه، ثم انعطف إلى القصر الملكى فقابل رئيس الديوان لمدة ربع ساعة، وسلمه مظروفاً مغلقاً، ثم مضى إلى مبنى مجلس الوزراء فتوافد عليه الوزراء، ولما اكتمل عقدهم أبلغهم بأنه قدم استقالة الوزارة !!.

ونرى من ذلك أن أهم ما فى الخبر وهو استقالة الحكومة جاء فى ذيل الخبر ولا يضمن القارئ الاستمرار فى قراءة التفاصيل، فينصرف عنه. وتفوت عليه معرفة الخبر. وعندما أعود إلى الصحف القديمة أجد تمسكها بهذا الأسلوب الردىء، حتى فى نشر أخبار الجرائم ففى مجلة «المصور» بتاريخ ٢٠ مارس ١٩٣٠ تحقيق من صفحتين عن جريمة قتل فى إحدى قرى المنوفية تحت عنوان «قتيل فى قُفة»، وخلاصته أن مجرماً محترفاً اتفق مع اثنين من زملائه على استدراج تاجر أقطان

من طنطا، فطلبوه فى التليفون، وزعموا له أن لديهم كمية من الأقطان يعرضونها للبيع، فبعث إليهم بمندوب من طرفه ومعه ثمن القطن، وقابلوه عند محطة السكة الحديد وصحبوه إلى منزل زعيم العصابة، ثم انهالوا عليه ضرباً بالبلط وأخذ الرجل يستغيث بلا جدوى، وترامت صرخاته إلى بيت مجاور فذهبت صاحبة البيت تستطلع الخبر، فزعمت لها صاحبة البيت أن زوجها كان يضرب ابنه، فلم تقتنع الجارة، وذهبت لإبلاغ نقطة البوليس، فدهموا البيت وعثروا على جثة القتيل فى قفة تمهيداً لنقلها وقدم المجرمون الثلاثة إلى محكمة الجنايات فحكمت عليهم بالإعدام شنقاً. وروى المحرر تفاصيل عملية الإعدام وأقوال كل مجرم قبل أن يهوى إلى بئر المشنقة.

وبدلاً من أن يبدأ المحرر بذكر أهم ما فى الخبر وهو تنفيذ حكم الإعدام فى الأشقياء الثلاثة: بدأ بسرد تاريخ حياة المجرم الأول وكيف أنه نشأ فى بيئة فاسدة، وعاشر المجرمين والأشرار فتشبع بأخلاقهم، ثم برزهم فى مضمار الشر والإجرام. فأصبح مسموع الكلمة بينهم، وهابه الفلاحون لسطوته وشدة بأسه، وكان يؤجر لقتل الناس.. إلخ.. وبعد هذه المقدمة البلاغية والمحرر يسرد نص المكالمة التليفونية التى دارات بينه وبين تاجر الأقطان فى طنطا.. ولم ينس أن يسجل ختام الحوار بينهما وهو: السلام عليكم.. فيقول الآخر.. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. ثم يروى المحرر التفاصيل الهامشية. وأسماء الحوارى التى سار فيها الضحية مع المجرم حتى استقر به المقام فى البيت، ثم فى النهاية يأتى ذكر الحكم على الثلاثة بالإعدام.. وتنفيذ الحكم..

لقد تطورت الأساليب الصحفية تطوراً كبيراً.. واستفادت الدراسات الصحفية من بحوث علم النفس التى تقول أن العين تستعرض المواد المنشورة فى الصحيفة ثم تتوقف عند أكثرها أهمية، ولذلك بدأ تحرير الخبر فى الصحافة الحديثة بنشر أهم مضامين الحدث، ثم تتوالى التفاصيل.. وابتدع كتاب الأخبار مقدمة موجزة للخبر تشمل أهم محتوياته.. فلربما اكتفى القارئ بها عن الاستمرار فى القراءة، فقد أصبحت العجلة من سمات العصر، ولم يعد القارئ مستعداً لتضييع وقته فى قراءة تفاصيل لا تثير اهتمامه.. مثل تبادل السلام بين القاتل والضحية عبر أسلاك التليفون.

يعقوب صروف

هو علم من أعلام الأدب والعلم والفلسفة فى العالم العربى الحديث. ورائد الصحافة العلمية التى شقت طريقها إلى الناطقين بالضاد عن طريق «المقتطف» التى ظهرت فيما بين عامى١٨٧٦ ، ١٩٢٧ لتحمل لواء الفكر العلمى والتحرر الثقافى والتقدم الاجتماعى وتبعث فى العقل العربى دفقات تنويرية جديدة تبدد الظلام الذى خيم على العقول والافهام وتحارب الخرافات والخزعبلات الموروثة عن العصر العثمانى.

نشأ يعقوب صروف فى لبنان فى مستهل النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وتلقى علومه الأولية فى قرية «الحدث» بضواحى بيروت ثم التحق بالكلية الإنجيلية السورية ـ التى صارت الجامعة الأميركية فيما بعد.. بعد حصوله على البكالوريوس عمل مدرساً لمدة ثلاث سنوات، ثم استدعته الجامعة ليعمل مدرساً للرياضة والفلسفة الطبيعية

والفيزياء لما كانت تعلمه عن نبوغه فى هذه العلوم، وفى مايو ١٨٧٦ أصدر «المقتطف» مع زميليه فارس نمر وشاهين مكالوريوس ثم هاجر الثلاثة إلى مصر بعد ثلاث سنوات من وقوع الاحتلال البريطانى فتفرغ «نمر» لإصدار «المقطم» وجعلها بوقاً للاحتلال واتجه «مكاريوس» إلى الصحافة المصورة، أما يعقوب فقد ثابر على إصدار «المقتطف» لتكون كما كان يحلم: «منبراً لتنوير الأمة العربية ورفع مستواها الفكرى والاجتماعى» وجعل العلوم فى مناحيها المختلفة. حجر الرحى الذى تدور حوله كل مواد المجلة، وكانت الفلسفة الطبيعية وليس فلسفة ما وراء الطبيعة ــ الناقوس الذى يوقظ العيون والعقول، ويدفع الناس إلى الاهتمام بالقضايا الحياتية، والتخلص من آفات البدع والخرافات ومهد الطريق إلى معنى الحرية الشخصية والاستقلال الفكرى.

وكانت طبيعة «المعلم» هى المكون الأساسى فى شخصية صروف، فكما كان معلماً لتلاميذه فى المدرسة، اتسعت أمامه رقعة التعليم عن طريق «المقتطف» التى انتشرت فى أنحاء العالم العربى، وبين العرب المقيمين فى العالم الجديد. وقد وجدوا روحاً جديدة، ومباحث علمية اعتصرها يعقوب من أعمال العلماء المفكرين والفلاسفة، ثم قدمها إلى القراء فى أسلوب مبسط، ولغة عربية صافية خالية من التعقيد، ودون تشويش أو تضليل أو تأويل، فقد كان أقصى أمانيه أن يكون القارئ العربى على بينة من قضايا عصره، دون إملاء أو هيمنة على عقل القارئ، فقد كان الرجل بتكوينه النفسى يتجنب الأحكام القطعية، ويرفض الجزم فى الأمور التى يعرضها، وكانت القاعدة التى لم يخرج عنها طوال حياته: أن يترك الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام الآراء

الأخرى لكى تضيف إلى الحقيقة رافداً جديداً، لذا كان كثير التروى، قليل التسرع أو التهور فى الرد على مخالفيه.

وكان للمقتطف وصاحبها السبق فى إطلاع قراء العربية على ثمرات الفكر الأوروبى، مثل الداروينية والاشتراكية، فهو أول من عرض للنظريات الإشتراكية التى انتشرت فى أوروبا منذ مطلع القرن التاسع عشر، وفى مصر دعا الحكومات والجماهير إلى الأخذ بها باعتبارها الوسيلة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، وهو أول من نشر نظرية «النشوء والارتقاء» التى أعلنها دارون، وفتح صفحات «المقتطف» أمام صديقه وزميله الدكتور شبلى شميل لشرح هذه النظرية والدعوة إلى دراستها دراسة علمية مجردة، مما فتح باب الجدل والمناقشات العنيفة شارك فيها السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وغيرهما.

يقول كاتب سيرته عيسى ميخائيل سابا فى الكتاب الذى صدر ضمن سلسلة نوابغ الفكرالعربى ـ العدد ٣٧ ـ الصادر عن دار المعارف بمصر: كان يعقوب صروف مطبوعاً منذ صغره على حب البحث والتحقيق شأن العلماء الحقيقيين، وربما قضى أياماً وأسابيع وشهوراً فى سبيل درس مسألة علمية أو نظرية فلسفية أو معادلة كيميائية، ليصل إلى الحقيقة المتوخاه، وكان فى كل أبحاثه يرد المسببات إلى أسبابها، نابذاً القشور بثاقب فكره غير حافل إلا باللباب، وإذا نحن نظرنا إلى باب الأسئلة والأجوبة فى مجلدات «المقتطف» وما فيه من أجوبة سديدة فى مختلف العلوم والفنون والحوادث والحالات: ندهش مما وعى صدره من الحقائق والمعلومات، وما كان عليه ذهنه من المضاء، ونظره من

صدق الحكم والاستنتاج، وكان من أشد الناس كرهاً للخصام والشقاق، وأقربهم إلى الصفاء والوفاء ومع غزارة علمه وسعة اطلاعه لم يكن يعرف للفظ العداوة معنى، ولا يدرك لكلمة الحقد مغزى، وهذا ما يدلنا على سمو أخلاقه، وجليل صفاته، وكان يرى أن المرء ملتزم بأن يسدى المعروف، ويبسط يد المعونة والإسعاف غير منتظر شكراً، لأنه واجب إنسانى.

«كان عباس محمود العقاد دائم التردد على «المقتطف» للتزود من مكتبتها العامرة فيقول: رأيت فيه صورة واحدة لم تتغير منذ رأيته أول مرة، صورة فيلسوف له عقل عالم مشغول بالواقع من الخبرة العملية، وله مع هذا العقل العلمى قلب إنسان ودود يحب الخير للناس ويغتبط بتوفيقهم للنجاح.

مجلة رعمسيس

التنقيب فى الصحف والمجلات القديمة متعة يعرف لذتها الكُتاب والصحفيون المخضرمون، مثل علماء الآثار حين يستخلصون التجربة الإنسانية من التاريخ، ويستنطقون القطع الأثرية لتروى لنا أحداث الماضى، وهو نفس الشعور الذى يخالج الصحفى المعاصر عندما يقف على جهود الأسلاف الذين سبقونا إلى بلاط صاحبة الجلالة، وحققوا نجاحات كبيرة بإمكانيات متواضعة. ومن دواعى فخرى واعتزازى أن مكتبتى الخاصة تضم بعض مجلدات من مجلات قديمة اندثرت أسماؤها، ولم يعد لها ذكر إلا فى أطروحات الدراسات الأكاديمية، وباتت من التراث الصحفى نعود إليه كلما شدنا الحنين إلى جهود الرواد.

من هذه المطبوعات القديمة مجلة صدرت فى عام ١٩١٢ فى حجم الكتاب الكبير أصدرها الأخوان رمزى تادرس وكيرلس تادرس، واسمها

«رعمسيس» وهو مكون من مقطعين: «رع» وهو اسم الشمس فى الديانة المصرية القديمة، وانتسب إليه ملوك الأسرة التاسعة عشرة الذين عرفوا باسم «الرعامسة» ومفردها رعمسيس، ولكن اللغة الدارجة حذفت حرف العين.. فصار كل منهم «رمسيس».

وأوضح صاحبا المجلة أن لها غرضاً معيناً تسعى إليه وهو أن تصبح عاملاً قوياً من عوامل التعليم والتهذيب فى وادى النيل، وأنها تسير نحو هدفها بتؤدة وثبات على قاعدة النمو المتواصل، والسعى نحو الأفضل غير ناظرة إلا إلى الأمام، ولذا تقدم إلى القارئ كل ما يفيده فى التاريخ والعلم والأدب. وفى بحث تاريخى عن نشأة النظم السياسية قالت: لم يعلم إلى الآن بالتدقيق أول الممالك التى نشأت فوق الأرض، ولكن يظهر الكلدانيينى والأشوريين «فى بلاد الرافدين» هم أول الأمم التى أنشأت الممالك وعبأت الجيوش وأثارت الحروب فى العالم القديم الذى يذكر عنه التاريخ أن مصر والهند والصين كانت أقدم الأمم حضارة، وأسبقها إلى التمدين، وأن الإيرانيين والأحباش عريقون أيضاً فى القدم والحضارة، وفيما هم ساعون وراء المدنية: داهمتهم غزوات «السكيتين» أو قبيل من رحالة العرب «لعله يقصد الهكسوس» فضربوا عليها الذلة، فهاجر كثير من أهلها إلى بلاد الاغريق وأذاعوا فيها مبادئ المدنية، فانتشرت وأحدثت انقلاباً عظيماً فى كثير من الممالك المعروفة وقتئذ.

وفى بحث تربوى عن «التعليم الإيجابى» قالت المجلة: أن أمانى علماء الأخلاق لم تتحقق بعد، ولكن بالنسبة لرقينا وتقدمنا فى العمران تزداد أهمية مبدأ التعليم الإيجابى فى تربية النشء لأن التحريض على

اتيان الفضيلة - إذا كان إيجابياً - هو افعل منه سلبياً. وقال الباحث عن ماهية هذا التعليم: يجب أن نعلم أن وراء التهذيب غاية سامية هى خير الطفل وسعادته مادياً وأدبياً، ولا نتمكن من نيل ما نقصده بضغطنا على قواه، طالما كان سعينا ليس إخضاعه لإرادتنا المطلقة، بل لتربية قواه العقلية وتقويتها ليصير فرداً مستقلاً يحكم نفسه بنفسه، ويصبح عضواً حياً عاملاً فى الجسم الاجتماعى، بل عضواً يعتمد عليه فى خدمة مصالح أمته ومشاركة اخوانه فى رفع شأن الانسانية وتقريبها من الكمال.

وتحتوى مجلة رعمسيس، بحثاً علمياً عن أصل الانسان الأول بقلم «الكاتب الاجتماعى الكبير محمد افندى مسعود» المحرر الفنى بنظارة «وزارة» الداخلية. يقول فيه أن علم البحث فى حياة الانسان القديم علم حديث النشأة لأن الذين تخصصوا فيه هم من أبناء الجيل الحاضر. وقد تفرغوا له جماعات شتى تفرغاً صحيحاً، فاستخرجوا من دفائن الماضى السحيق كنوزا من الحقائق المتعلقة بوجود الإنسان فى الأزمان السابقة على التاريخ أى قبل مائتى ألف سنة من الزمان. وقد ذهب البعض إلى أن الإنسان فى تلك العصور السحيقة كان متديناً ولا يأكل سوى اللحوم البشرية، وليس هذا من الصواب فى شيء، لأن مبدأ الاعتقاد بدين لا تقوم له قائمة إلا إذا كان أساسه احترام الموتى من الآباء والأجداد، ولكن الذى يؤخذ عن بقايا العظام النخرة والهياكل البالية فى داخل الكهوف أن الإنسان الأول كان لا يحترم هذه البقايا، بل كان يدع جثث الموتى يعتريها الفساد والتعفن حيث فاضت أرواح أربابها، فتأتى الضباع من كل فج عميق لانتهاشها والتكالب عليها، أما

تغذى الإنسان بلحم أخيه فى تلك العصور المظلمة بغياهب الهمجية والتوحش فبعيد عن الاحتمال، لأن العظام والهياكل التى وجدت لا تحمل أى أثر يدل على أن ما أحاط بها من اللحم أكله الإنسان.

أما عن اللغة التى كان يتحدث بها الإنسان القديم فلم تكن مؤلفة من كلمات معينة ذات مخارج معلومة، بل كان الإنسان يصيح صيحات تكفى للتفاهم مع الآخرين فيما لا يتعدى الدلالة على الحركات والأفعال الضرورية فى الحياة، كشأن الطفل فى أوائل السنة الثانية من عمره حينما يعبر عن مراده بصيحات معلومة تدل كل صيحة منها على معنى مخصوص يريد أداءه بها. وقد استغرق انتقاله إلى مدارج الحضارة بضعة آلاف من السنين إلى أن وصل إلى أعلى درجة من سلم الرقى الاجتماعى والمدنى.

ومن الطرائف المنشورة فى ثنايا المجلة: سئل أحد الأطباء ما هو دماغنا؟ فقال: هو عدة تلغرافية مربوطة بأسلاك عديدة يرسل عليها تيار الإرادة إلى جميع الأعضاء ليؤدى كل عضو منها وظيفته، وما يراد منه أن يقوم به ويؤديه، فإذا تعطلت هذه العدة وقف الفكر، وتعطلت وظيفة الأعضاء، وهذا ما يسمونه «النقطة» وكما أن التلغرافى يغذى عدته، كذلك الدماغ يجب أن يغذى بالدم الذى يرسله إليه القلب، فإن كان زائداً: وقفت العدة أيضاً، وقضت على الحياة.

أما وصيته لتلافى هذه الكوارث، وحفظ الدماغ لوقاية الحياة فهى: قلة السكر، والإقلاع عن الكحول والشهوات، والتفادى من أكل اللحوم، لحوم الطير والحيوان.

ومجلة «رعمسيس» التى يصل عدد صفحاتها إلى ٤٢٢ صفحة، تحتاج إلى عدة أيام حتى تفرغ من قراءتها، لأن العصر كان يسمح بذلك.

جورجى زيدان

كان العام ١٨٩٢ من الأعوام المميزة فى تاريخ الصحافة، ففيه أصدر الأديب الثائر عبدالله النديم مجلة «الأستاذ» بعد عودته من المنفى، وفيه صدرت صحيفة «الفتى» لصاحبها اسكندر شلهوب، وأصدرت هند نوفل بالإسكندرية مجلة «الفتاة» أول مجلة نسائية فى العالم العربى، وأصدر جورجى زيدان مجلة «الهلال» التى لا تزال تصدر حتى الآن، فهى بذلك أقدم مجلة عربية. ونتحدث اليوم عن هذا الرائد الصحفى الذى أسس «دار الهلال» من مطبعة يدوية متواضعة فى شارع الفجالة بالقاهرة. وظلت الدار تنمو حتى صارت إحدى قلاع الصحافة، ويصدر عنهاالعديد من المجلات أشهرها «المصور» و «حواء» و«سمير» و«الكواكب» وروايات الهلال وكتاب الهلال... إلخ.

ينتمى چروچى زيدان إلى عشيرة مسيحية فى إقليم حوران بالشام، هاجر نفر منها إلى «عين عنوب» بلبنان حيث ولد أبوه ثم غادرها إلى

بيروت وتزوج فيها وأنجب چورچى وكان الأب يدير مطعماً صغيراً يرتاده نخبة من أدباء الشام مثل إبراهيم اليازجى وعبدالله البستانى. وما أن بدأ الصبى مرحلة الدراسة الابتدائية حتى اضطر إلى هجر التعليم لكى يعين أباه فى تشغيل المطعم، ولم يكن ريع المطعم لا يكفى لإعالة الأسرة، فاتفق الوالدان على تعليمه حرفة تدر عليهم دخلاً إضافياً، فألحقه أبوه بمحل لصناعة الأحذية، ومحل آخر لبيع الأقمشة وفى أثناء ذلك لم يكن الفتى يكف عن إرضاء رغبته الجامحة إلى طلب العلم، أو إشباع هوايته الأدبية فكان يتردد على المقاهى لسماع «الحكواتى» ليسمع التراث الشعبى ويسجل ملاحظاته فى مفكرة صغيرة، وسيطر عليه الإعجاب بشعر المتنبى وابن الفارض.

وفى نفس الوقت التحق الصبى چورچى زيدان بمدرسة المعلم مسعود الليلية وتعلم فيها اللغة الإنجليزية، ويخصم مصاريف المدرسة من ثمن وجبات الطعام التى يتناولها المعلم مسعود فى المطعم، كما درس مسك الدفاتر، وعمل فى محل «غرزوزى» وانضم إلى جمعية «شمس البر» المسيحية واختلط فيها بطلاب من الكلية الأمريكية فكان يصحبهم إلى مقر الجامعة لسماع الخطب والمحاضرات العلمية، وشجعه اتقانه اللغة الإنجليزية على الالتحاق بالكلية واجتاز امتحان القبول بتفوق.

وما لبث أن طُرد منها بعد سنتين لإشتراكه فى إضراب طلابى من أجل حرية الرأى، ولكنه استطاع خلال هذه الفترة أن يحصل على شهادة فى الكيمياء التحليلية، وأخرى فى اللغة اللاتينية بدرجة امتياز.

وبعدها تطلع چورچى إلى دراسة الطب فى مصر. فاقترض من أحد جيرانه مبلغ ستة جنيهات وركب سفينة تجارية إلى الإسكندرية تحمل شحنة من الأبقار والأغنام فى العام التالى للاحتلال البريطانى لمصر، ولكنه لم يوفق فى دخول كلية طب قصر العينى، فالتحق بجريدة «الزمان» ورافق الحملة النيلية الإنجليزية إلى السودان لإنقاذ «غوردون» مترجماً بقلم المخابرات البريطانية، وبعد عودته إلى مصر فى عام ١٨٨٥ سافر إلى لبنان، ومنها إلى انجلترا، ثم عاد إلى مصر وعمل فى إدارة مجلة «المقتطف» التى كان يصدرها يعقوب صروف وفارس ونمر ولكنه تركها وانصرف إلى تأليف الكتب، فوضع كتابه عن «تاريخ مصر الحديث» فى جزئين، و «التاريخ العام» عن بعض ممالك آسيا وأفريقيا، و «تاريخ الماسونية العام» ويبدو أنه تورط فى محافلها كما يقول كاتب سيرته الدكتور أحمد حسين الطماوى.

وفى التاسع من سبتمبر «أيلول» عام ١٨٩٢ أصدر العدد الأول من مجلة «الهلال» مجلة علمية تاريخية صحية أدبية من خلال المطبعة اليدوية التى أسسها فى دكان صغير بشارع الفجالة، ورسم خطتها وهدفها. وكتب فى العدد الأول: بعد حمد الله على نعمه وكرمه، والتوسل أن يلهمنا الصواب وفصل الخطاب، فإن خطتنا الإخلاص غايتنا، والصدق فى لهجتنا، والاجتهاد فى إبقاء حق خدمتنا، ولا غنى لنا فى ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر من كل صقع ومصر، أما الغاية التى نرجو الوصول إليها فإقبال السواد على ما نكتبه، ورضاؤهم عما نحتسبه، وإغضاؤهم عما نرتكبه، فإذا حققنا ذلك فقد استوفينا أجررنا، فننشط لما هو أقرب إلى الواجب علينا.

وشرح چورچى زيدان ثلاثة أسباب لتسمية مجلته «الهلال» فقال:

● أولاً: تبركا بالهلال العثمانى.

● ثانياً إشارة لظهور المجلة كل شهر.

● ثالثاً: تفاؤلاً بنموها مع الزمن حتى تتدرج فى مدارج الكمال، فإذا لاقت قبولاً وإقبالاً، أصبحت بدراً كاملاً بإذن ا.

ثم حدد علاقته بالقراء ورسالته نحوهم فقال: لقد ظهر من الكتاب والعلماء ثم ينبغ منهم فى خدمة الأمة إلا عدد قليل، ولم تنجح سوى صحف قليلة ولا يعود التفاوت بين طبقات الكتاب فى العلم، بل يتفاوتون فى الشعور بحاجة الأمة، وتفاوت قدرتهم على تطبيق ما يعرفونه عن حاجة الأمة، فنحن فى حاجة إلى العلم، لكننا أحوج إلى الشعور بحقيقة حالة الأمة بحيث نطبق علمنا على حاجتها، مما يحتاج إلى الحاسة الاجتماعية فى كل سطر يكتبه المحرر، لأن القارئ كالشارى يهمه حقيقة المنفعة الأدبية والمادية دون النظر إلى زخرف الكلام، ولا ينبغى الانفصام بينهما.

وبقيت «الهلال» كما أراد لها منشئوها، نبراساً للثقافة العربية الأصيلة، ومحركاً للتراث والتاريخ والآداب العربية. ويقول فى ذلك أنيس المقدسى: قام زيدان والعالم العربى يعانى من الشعور بالصغار الذاتى، ويعظم ما هو أجنبى، ويحقر التراث القومى، وتمادى الأجانب فى الاستعلاء والتشامخ، فسلك زيدان مسلك الباحث المتعمق، فلما أشرق هلاله وجد الناس فيه روحاً شرقية بحاثة تتغلغل فى ثنايا الكتب القديمة، وتستخرج منه غذاء شهياً للنفوس.

كان مـؤرخاً نزيهاً يحاول الوصول إلى الحقيقة مـهمـا كانت دون انفعال وأزاح عن التراث الفكرى غواشى الظلمات وغرس فى نفوسهم بذور الثقة بالنفس.

تاريخ الآداب العربية

لم يكن چورچى زيدان رائداً صحفياً فقط، بل كان مؤرخاً وباحثاً فى تاريخ العرب وآدابهم وعوائدهم منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث. وبعد أن كان الكتاب الأوروبيون ينفردون بتأريخ المجتمعات العربية، جاء چورچى زيدان ليلتقط منهم الخيط، ويسير على نهجهم فى البحث التاريخى، فوضع كتابه الجليل (تاريخ آداب اللغة العربية من أقدم العصور إلى اليوم) وبدأه فى شكل بحوث نشرها فى مجلة (الهلال) من أول يناير ١٨٩٤، وعند نشأة الجامعة المصرية بدأ التفكير فى تدريس الأدب العربى، وقرر مجلس الجامعة تدريس هذا العلم، وفى عام ١٩١١ صدر الجزء الأول من كتاب زيدان، ويبحث فى تاريخ آداب اللغة العربية من العصر الجاهلى إلى نهاية العصر الأموى، فقررت بعض المدارس الكبرى فى مصر والشام تدريسه على الصفوف العليا، ثم توالى صدور الأجزاء الثلاثة. وفى نفس الوقت صدرت كتب مماثلة

ولكنها دخلت زوايا النسيان، فى حين بقى كتاب چورچى زيدان حياً يظهر فى طبعات جديدة حتى الآن.

يقول العلامة الدكتور شوقى ضيف فى تقديمه لهذا الكتاب: ليس بين المشتغلين بالأدب العربى وتاريخه من ينكر الجهود الخصبة التى نهض بها الأستاذ چورچى زيدان فى العشرة الثانية من القرن العشرين، فقد درس آدابنا فى عصورها المختلفة درساً منظماً، لم يكتف فيه بقراءة آثارها ونصوصها العربية بل مد بصره إلى ما كتب عن هذه النصوص والآثار فى بيئات المستشرقين، يسنده فى ذلك حذق باللغات الفرنسية والألمانية والإنجليزية، فلم يترك للقوم مصنفاً مهماً فى عصره إلا طلبه، ولا مجلة علمية إلا وقف عليها، وأفاد منها أكبر الفائدة واستغلها خير ما يكون الاستغلال. وتمثل ذلك كله وحوله إلى هذه المادة الغزيرة القيمة التى يتضمنها كتابه بأجزائه الأربعة الجامعة، ولا تكاد تلم بها حتى ترى المؤلف يأخذ نفسه بأساليب البحث الحديث، فهو يدرس العلل والأسباب السياسية والاجتماعية التى أثرت فى آدابنا على مر العصور، وهو يفرد فصولاً طوالاً لحياتنا العقلية بجميع فروعها العلمية ليتبين أصداءها فى الحياة الأدبية، فالأدب الخالص ليس شعبة منقطعة عن شعب الحياة والفكر فى الأمة، بل هو فاعل فيها ومنفعل بها، لا يتم تأريخه ولا تصوره بدونها.

أما چورچى زيدان فينفى المقولة الشائعة بأن العرب لم يؤلفوا فى تاريخ آداب لسانهم، وأن الأوروبيين سبقوهم فى ذلك، والحقيقة أنهم أسبق الأمم إلى التأليف فى هذا الموضوع فإن فى تراجم الرجال كثيراً

من هذا التاريخ لأنهم يشفعون الترجمة بما خلفه المترجم من الكتب، وأول كتاب خصصوه للبحث فى المؤلفين والمؤلفات كتاب «الفهرست» لابن النديم (سنة ٣٧٧هـ) فهو يشتمل على آداب اللغة العربية من أول عهدها إلى ذلك العصر مرتبة حسب الموضوعات، ولم يقتصر ذلك الكتاب على آداب اللغة الأصلية، ولكنه تضمن ما أحدثوه من العلوم الإسلامية واللسانية، أو ما نقلوه عن اللغات الأخرى بالتفصيل مع تراجم المؤلفين والمترجمين والشعراء والأدباء، ولولاه لضاع أسماء كثير من الكتب النفيسة، فهو ذخيرة أدب وعلم.

ويسرد چورچى زيدان أسماء بعض المؤلفات العربية القديمة التى أرخت لتاريخ الآداب العربية. ثم يشرح الغرض من تأليف كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) ويلخصها فى هذه الأهداف:

١ - بيان منزلة العرب بين سائر الأمم الراقية من حيث الرقى الاجتماعى والعقلى.

٢ - تاريخ ما تقلبت عليه عقولهم وقرائحهم، وما كان من تأثير الانقلابات السياسية على آدابهم باختلاف الدول والعصور.

٣ - تاريخ كل علم من علومهم على اختلاف أدواره من تكونه ونشوئة إلى نموه ونضجه وتشعبه وانحلاله حسب العصور والأدوار.

٤ - تراجم رجال العلم والأدب مع الإشارة إلى المآخذ التى يمكن الرجوع إليها لمن يريد التوسع فى تلك التراجم.

٥ ـ وصف الكتب التى ظهرت فى العربية باعتبار موضوعاتها، وكيف تسلسلت بعضها من بعض، وبيان مميزاتها من حيث حاجة القراء إليها ووجه الاستفادة منها.

ويحدد المؤلف الغرض الرئيسى وهو أن يكون لهذا الكتاب فائدة عملية فضلاً عن الفائدة النظرية، بحيث يسهل على طلاب المطالعة معرفة الكتب الموجودة ومحل وجودها وموضوع كل منها وقيمته بالنسبة إلى سواه من نوعه، فهو أشبه بدائرة معارف تشتمل تاريخ قرائح الأمة العربية وعقولها وتراجم علمائها أدبائها وشعرائها ومن عاصرهم من كبار الرجال، ووصف المؤلفات العربية على اختلاف موضوعاتها، فيصير معجماً للعلم والعلماء والأدب والأدباء ولما جاءت به قرائحهم من التصانيف، ووصف كل منها، ومحل طبعه أو وجوده.

لم يقتصر چورچى زيدان على التأريخ للعلوم اللسانية عند العرب القدماء مثل: الخطابة والشعر والأمثال والأنساب ومجالس الأدب، وإنما أرخ لعلومهم الطبيعية مثل: الطب والبيطرة والخيل ومهاب الرياح، والعلوم الرياضية مثل الفلك والميثولوچيا والتوقيت. وعلوم ما وراء الطبيعة ويدخل فيها الكهانة والعيافة والقيافة وتعبير الرؤيا والزجر وغير ذلك. وتكلم عن كل علم على حدة وبدأ باللغة فذكر تاريخها قبل الإسلام وما دخلها من الألفاظ الأعجمية، وكيف كانت بعد الإسلام وفروعها ومميزاتها عن سائر اللغات، ثم الأمثال وأنواعها، ثم انتقل إلى الشعر، وهو أهم تلك الآداب وبحث فى: هل عرف العرب الشعر التمثيلى كاليونان؟ وكيف بدأ العرب ينظمون الشعر، وما هو أصل ذلك

الشعر عندهم، وأسباب نهضة الشعر فى الجاهلية وأهمها استقلال عرب الحجاز من اليمن وحروبهم فيما بينهم، وتأثير البيئة فى إبداعهم، وتحدث عن خصائص للشعر الجاهلى وأحوال شعرائه، وقسمهم حسب أغراضهم إلى: أصحاب المعلقات، والشعراء الأمراء، والشعراء الفرسان، والشعراء الحكماء، والشعراء العشاق، والصعاليك، واليهود والنساء الشواعر، والشعراء الهجائين، وأوصاف الخيل، والموالى، وسائر الشعراء، ومميزات كل طبقة وأشهر شعرائها، وأمثلة من أقوالهم، والمآخذ التى يرجع إليها فى معرفة أخبارهم. ثم انتقل المؤلف إلى عصر صدر الإسلام وما أحدثه الإسلام فى نفوس العرب وتأثير ذلك فى آدابهم وكتب فصلاً فى الشعر والرسول، وآخر فى الشعر والخلفاء الراشدين، وبالجملة يعتبر الجزء الأول من هذا الكتاب مرآة تصور الحياة العقلية عند العرب فى العصرين الجاهلى والإسلامى، وما حدث فيهما من تطور سياسى واجتماعى وثقافى.

«الداروينية»
فى الصحافة العربية

كانت «المقتطف» أول مجلة عربية تفتح عين القارئ العربى على المنجزات العلمية التى بلغت ذروتها فى أمريكا وأوروبا، وشقت بذلك السبيل العلمى فى الصحافة العربية، ورغم أن «المقتطف» تحاشت الخوض فى المسائل الدينية، إلا أنها لم تسلم من سهام حراس الدين، لأن العصر كان يشهد صراعاً بين الدين والعلم استمراراً للمعركة التى كانت على أشدها فى أوروبا. وفى ذلك يقول العلامة ألبرت حورانى فى كتابه «الفكر العربى فى عصر النهضة» عندما وصلت الأعداد الأولى من «المقتطف» إلى بغداد، لم يرحب بها إلا بعض الشباب، بينما قاومها المحافظون من مختلف المذاهب السنية والشيعية والمسيحية واليهودية، لأنها كانت فى نظرهم تنشر عقائد جديدة وخطره، وعلى

رأس تيار المقاومة الأستاذ نعمان الألوس الذى كان يقود حركة إصلاح إسلامى على غرار حركة محمد عبده فى مصر.

أما أخطر التيارات الجديدة التى روجت لها «المقتطف» وأثارت الجدل فهو تيار «الداروينية» الذى وضع أسسه فى انجلترا العالم تشارلز دارون، وبنى عليه نظريته فى أصل الأنواع وكيف أن الكائنات الحية ترتقى وتتطور حتى وصلت إلى أعلاها وهو الإنسان. وكما أثارت هذه النظرية المؤسسات الدينية فى أوروبا، فقد قوبلت بالاستهجان عندما تسربت إلى الفكر العربى عن طريق الدكتور شبلى الشميل ١٨٥٠ - ١٩١٧، الذى حمل لواء الترويج للداروينية على صفحات المقتطف.

كان الشميل ينتمى إلى تلك الحركة الكبرى التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر والتى كانت تعتبر العلم أكثر من مجرد طريقة لاكتشاف النظام فى ترابط الأشياء، أو مفتاحاً لحل لغز الكون، بل نوعاً من العبادة، وهو نوع من التفكير يذكرنا بأتباع «سان سيمون» فى فرنسا وكانوا يؤمنون بأن العلم دين وأن نبيهم هو اسحق نيوتن عالم عصر النهضة ومكتشف الجاذبية الأرضية، وتبنى الشميل أفكار دارون فى وحدة الكائنات، فجميع الأشياء عنده تتكون من المادة بحركة عفوية وجدت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد، والأشكال المتكونة: أى المعادن والنبات والحيوان والإنسان، تكون فى كل مرحلة أكثر تميزاً بعضها عن بعض وأكثر تعقيداً منها فى المرحلة السابقة، كل مرحلة تنبثق من المرحلة التى سبقتها بدون انفصال، وذلك بفضل قوى ملازمة أصلاً للمادة نفسها تتخذ بدورها أشكالاً مختلفة باختلاف المستويات، والإنسان

هو قمة هذا التطور، والكائن الأول القادر على السيطرة عليه، والمساهمة فيه عن وعى، وذلك بتغيير ظروفه الخارجية، وبالاستعاضة عن الصراع من أجل البقاء بالتعاون وتوزيع العمل، وهذا الإنسان لا يزال ساعياً لبلوغ كماله الذاتى وتنمية قواه العقلية للوصول إلى سعادة المجتمع البشرى.

هذه الرؤية لتسلسل الكائنات، وللإنسان كفايتها الأخيرة هزت فى شبلى الشميل ـ كما يقول ألبرت حورانى ـ حس الجمال والجلال، كما هزت حس أبناء جيله فى أوروبا وأمريكا، فهو يتساءل قائلاً: هل هناك ما هو أبهج وأنفع من معركة تحول المادة وقواها، والعلم بأن جميع الأشياء فى حقيقتها شىء واحد؟ ولم يكن من قبيل الصدفة أنه أطلق على وحدة الطبيعة التعبير المستعمل فى الفلسفة الإسلامية «علم الكلام» للدلالة على وحده .. الله «التوحيد».

قوبلت الداروينية بصدمة فى العالم العربى، وكان لها وقع الصاعقة عند أبناء الديانة المسيحية والإسلام على السواء، مثال ذلك ما حدث فى الكلية الإنجيلية السورية «الجامعة الأمريكية» فى بيروت، وهى نفس الكلية التى تخرج فيها يعقوب صروف وشبلى الشميل، ففى ١٨٨٢ ألقى استاذ العلوم الطبيعية بالكلية خطاباً فى حفل التخرج أبدى فيه تأييده لنظريات دارون، فما كان من زملائه والمشرفين على إدارة الكلية إلا أن أعربوا عن استنكارهم لرأى زميلهم، ثم طرحت القضية على مجلس الأمناء فصرح الرئيس بأن مجلس الإدارة وهيئة الأساتذة ومجلس الأمناء لا يقبلون قط بأن يقال أو يعلم فى الكلية ما يسمى بالداروينية

وعندئذ لم يجد الأستاذ «المتهم» مناصاً من الاستقالة، فقبلت استقالته، وتضامن معه عدد من المعلمين المتحررين فكرياً فقدموا استقالاتهم احتجاجاً على طرد زميلهم، كما أبدى بعض طلاب الطب عطفهم فطردوا ثم أعيدوا بعد أن طلبوا الصفح والغفران.

وقد فسر الشميل ردة الفعل هذه بأنها كات متوقعة لأن رسالة «دين العلم الحديث» في رأيه هو إعلان الحرب على رؤساء الأديان القديمة التي يسيطر عليها رجال الدين، وهاجم الاستبداد الديني والاستبداد السياسي، فالأول يرفع بعض الناس فوق سواهم، ويستخدم السلطة لمنع نمو العقل البشري، والاستبداد السياسي ينكر حقوق الأفراد، وبذلك يعرقلان التقدم التدريجي الذي هو ناموس الكون، وأن المجتمع السليم هو الذي يقوم على تعاون كل أعضائه في سبيل خير الجميع.

عملاق الصحافة
فى بيت الأمة

شهدت الصحافة المصرية والعربية قائمة تضمنت كثيراً من أسماء الرواد والعمالقة فى مهنة الصحافة الذين سجلوا بصماتهم وكانت لهم مدارسهم المميزة التى تخرج فيها مئات الصحفيين والكتاب وأبناء المهنة.. كان أهم مايميز هؤلاء الرواد قصص الكفاح العظيمة التى قطعوها فى صمت وجلد فى زمن كانت شوارع بلاط صاحبة الجلالة شوارع وعرة غير مرصوفة.. ولعل على رأس هذه القصص العظيمة قصة العملاق مصطفى أمين الذى قد لا ينافسه أحد فى كفاحه وطريق الصبر الطويل الذى قطعه قبل أن يعرف الناس اسمه، رغم أنه ولد وتربى فى بيت زعيم الأمة سعد باشا زغلول الزعيم الذى التفت حوله مصر عام ١٩١٩ وكانت ثورة الشعب العظيمة عندما قبض عليه

الإنجليز عندما طلب السفر إلى لندن على رأس وفد يفاوض باسم الأمة الإنجليز فى مطلب الجلاء عن مصر وسخر منه المندوب السامى البريطانى قائلاً: ومن أنت وبأى حق تمثل الأمة.. وفى دقائق قامت حركة شعبية تجمع ملايين التوقيعات التى تعلن توكيلها سعد زغلول لرئاسة الوفد المصرى فى مفاوضات الاستقلال.. ولكن لماذا ولد مصطفى وتوأمه على فى بيت الأمة؟

يقول مصطفى أمين :

وكما أننى شخصياً انتقلت من القاهرة إلى دمياط وأنا فى سن الثالثة لتتولى عمتى تربيتى فى أحضان أسرتها بسبب وفاة أمى فى تلك السن المبكرة فكذلك حدث فى أسرة سعد زغلول الذى كانت له شقيقة كبرى أنجبت بنتاً اسمتها «رتيبة» وولداً أطلقت عليه اسم سعد زغلول على اسم شقيقها.. ولكن الأخت ماتت ولحقها زوجها بعد ذلك فكان ان قرر سعد احتضان رتيبة وأخيها سعد وتربيتهما معه فى بيته ولم يكن قد تزوج بعد، وعندما تقدم سعد زغلول لخطبة صفية فهمى قال لها أن لديه شرطاً واحداً هو أن تقيم معهما أمه مريم وولداه بالتبنى رتيبة وسعد.. وقبلت صفية الشرط ثم شاء القدر ألا تنجب فأضفت صفية على رتيبة وسعد من الحب والحنان ما جعلها تبدو أمهما.. وحتى لا يحدث الخلط بين سعد زغلول الباشا الكبير وسعد زغلول الابن الصغير تقرر تغيير اسم الصغير إلى سعيد.

وفى بيت سعد زغلول تم زواج رتيبة من محام شاب اسمه محمد أمين يوسف.. وفى بيت سعد أيضاً ولد التوأم على أمين ومصطفى

أمين ومنذ تعلما الكلام كانا يناديان سعد زغلول «يا جدى» وصفية زغلول «يا ستى» ولم يعرفا إلا متأخراً أن الباشا كان خال أمهما.. ولكن بعد أن تغذيا من خلال المناقشات التى كانت تجرى فى بيت زعيم الأمة والأسماء الكبيرة التى كانت تزوره والصحف والمجلات العديدة التى كانت تدخل البيت ويجدها التوأم فى كل أنحاء البيت!

وقد اشتهر مصطفى بتقدمه على توأمه على فكان يقال مصطفى وعلى بينما الحقيقة غير ذلك.

كتب على أمين قديماً يصف مولدهما قائلاً:

فى ظهر يوم ٢١ فبراير سنة ١٩١٤ تم استدعاء الطبيب السويسرى دكتور ميلتون إلى بيت الأمة حيث أخرج للعالم طفلاً «ملظلظا» تدب فيه الصحة والعافية والعضلات أيضاً.. وتلقت أم المصريين الطفل وراحت تحيطه باللفافات والاربطة وفجأة صاحت الست الحكيمة: الحقونى يا هوه.. فيه واحد تانى!

وهنا أغمى على والدتى، وأغمى على الدكتور! وأخرجت الحكيمة طفلاً هزيلاً ضئيلاً يدق قلبه كما تدق الساعات الرخيصة التى لا تنتظم خمس دقائق إلا للتوقف خمساً أخرى..

وأطلق على الطفل «الملظلظ» اسم «على» وسموا الطفل الهزيل «مصطفى». ولم تشأ الأسرة أن يغمى على الأب الذى كان موجوداً فى دمياط فأرسلت إليه برقية تقول فيها إن حرمكم أنجبت ولداً ذكراً، والإمضاء سعد زغلول.. وأسرع والدى إلى القاهرة.. ولما دخل بيت الأمة أحضروا له طفلاً واحداً سر به سروراً عظيماً فقد كان «ملظلظا»

وقويا.. وبعد عشر دقائق عاد الأب وأطل على الطفل فإذا به هزيل وضعيف.. واعتقد الأب أن ابنه أصيب بنزيف جعله يفقد النصف فى عشر دقائق فأسرع يعدو فى الشوارع باحثاً عن الدكتور طلعت باشا لعله ينقذ ما يمكن إنقاذه من المولود.. وفى الطريق التقى والدى بأحد أصدقاء سعد باشا فهنأ أبى على الولدين الذين رزق بهما..! ولم يتحمل والدى الصدمة فأغمى عليه.. وراحت والدتى تبكى من الكارثة التى حلت بها وتندب حظها لأنها رزقت بتوأمين.. وجلست أم المصريين بجانبها تهدئ روعها وتبلغها أن سعد زغلول كان أسعد الجميع بالولدين وأنه يريد أن يتبنى أحدهما.. ووافقت والدتى على أن تحتفظ بالولد الملظلظ وتتخلى عن الطفل الهزيل لسعد زغلول. وسر سعد بهذا. وتقرر أن يصبح «مصطفى أمين» مصطفى زغلول.. لكن الأب ثار على هذه الفكرة ورفض أن يتخلى عن أحد الولدين لسعد زغلول.. ولم تكن حياة مصطفى بعد ذلك سهلة فقد كانت حالته الصحية سيئة لدرجة جعلت الأطباء يفقدون الأمل فى حياته.. واقترحت إحدى الممرضات أن يستحم مصطفى كل يوم بالنبيذ.. ولأول مرة دخلت زجاجات النبيذ بيت الأمة.. بل دخلت عشرات ومئات منها إلى أن استرد مصطفى صحته واقتنع الأطباء بعد ١٨ شهراً من ولادته أنه قد يعيش.!

الليبرالية

تسلل الفكر الليبرالى إلى الرأى العام فى مصر والعالم العربى، عن طريق الجريدة التى أسسها أحمد لطفى السيد باشا باسم حزب الأمة فى سبتمبر ١٩٠٧ وهو الذى أطلق على هذا النوع من الفكر اسم «مذهب الحريين» وهو الترجمة الحرفية لكلمة الليبراليين بدلاً من أن يسميهم أنصار الحرية أو مذهب الأحرار، وإن كانت كلمة الحريين لم تلق رواجاً على عكس كلمة الديمقراطية أو الديمقراطيين فكانتا أكثر شيوعاً.

والليبرالية تيار فكرى ظهر فى أوروبا فى أعقاب سقوط الإقطاع وازدهار الرأسمالية وما كانت تدعو إليه من حرية الفكر والعمل والإنتاج وسيطرة النزعة الفردية وتقليص سلطة الحكومة وحصرها فى أمور ثلاثة هى: الإشراف على الأمن الداخلى «الشرطة» والأمن الخارجى «الدفاع» والقضاء. ومقاومة أى قيد على حرية الفرد سواء فى الأخلاق

أو الدين أو الثقافة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة. ولكن الفكرة الليبرالية لم تشمل كل هذه المفاهيم الواسعة وتبلورت فى شكل الحرية السياسية على أساس أنها مدخل للحريات الأخرى.

تبنى أحمد لطفى السيد هذا الفكر الجديد، وبشر به على صفحات الجريدة، وعلى مدى سنوات صدورها قام بشرح أهداف الليبرالية باعتبارها طوق النجاة لمقاومة الحكم الاستبدادى وتمثله: الخديوية، ويدعو قومه إلى الاعتماد على قواهم الذاتية حتى يتحرروا من هيمنة الحكومات عليهم «وحتى لا نكون عيالاً على الحكومة.. فلا يجوز أن نطلب من الحكومة كل شيء.. ولا نطلب من أنفسنا شيئاً». ومن ثم كانت دعوة لطفى السيد إلى تشجيع الرأى القائل بإنشاء بنك مصر، وإنشاء الجمعيات الزراعية لأنها حجر الأساس فى تحرير الاقتصاد المصرى. وتوجه الكاتب بحديثه إلى نواب الأمة وممثليها فى الجمعيات النيابية ليتولوا بأنفسهم ترويج الأفكار الجديدة وإقناع الناس بنشر جذورها فى التربة الاجتماعية.

ومع ذلك فإن هذه الأفكار الجديدة كانت تلقى الصدود من جانب القوى المعارضة للحرية، وذلك بسبب الغموض الذى كان يحيط بمذهب الحريين واستغل خصومه جهل العوام بهذه المفاهيم «المستوردة» وأشاعوا بينهم أنها تعنى التهتك والفجور، حتى إن خصم أحمد لطفى السيد فى الانتخابات العامة أشاع بين الناخبين أن لطفى يدعو إلى الديمقراطية التى تسمح للمرأة بأن تتزوج بأكثر من رجل!!

ونتج عن ذلك سقوطه فى الانتخابات، وكان هذا مصير كل الأفكار الجديدة عندما تزرع فى وسط ترتفع فيه نسبة الأمية والجهل.

ومع ذلك يقول أستاذنا الدكتور عبداللطيف حمزة أن أحمد لطفى السيد كان لبقاً فى عرض أفكاره الجديدة عن الليبرالية بحيث لا يفهم من معنى الحرية أنها الفوضى، بل يفهم منها أنها القيد النافع للأفراد والحكومات والجماعات، ويستشهد بقوله: تدور أفكار الناس وأعمالهم على أصل واحد هو المنفعة ومنفعة الناس دائرة مع مذهب الحرية وجوداً وعدماً ومذهب الحرية يحمى الحكومة الاستبدادية من شر نفسها، وسوء نتائج استبدادها، ومذهب الحرية «الليبرالية» يكفل الانتفاع لكل فرد من الأمة لأنه مذهب مؤلف من طبائع الإنسان، فهو أحسن ضمان للحكومة وللأمة فى وقت واحد، أما المذاهب الأخرى: فالاعتماد فيها على القوة والاكراه، وهيهات أن يحب المرء الحكومة «بالنبوت» أى العصا الغليظة.

ولم يغب عن ذهن لطفى السيد اختلاف مفاهيم الحرية باختلاف الأوطان، فقال: لسنا من فرط الادعاء بحيث نطلب تقليد إنجلترا دفعة واحدة من غير أن يكون لنا ما لإنجلترا فى تاريخ الحرية. ومن ثم لم يستغرب لطفى السيد من أن النواب المصريين فى الجمعية التشريعية قرروا يوماً أن مصر لا تستحق الحرية الشخصية التى أنعم الله بها على جميع مخلوقاته، ثم عادوا فندموا على هذا القرار أشد الندم، وعرفوا أنهم كانوا يخشون فيه بطش «كرومر» المعتمد البريطانى، ولا يخشون فيه سخط الأمة التى هم منها. وقد عاب لطفى على النواب خشيتهم

بطش كرومر والحكومة المصرية وشعر فى أعماق نفسه أن عليه واجباً وطنياً هاماً، هو إرشادهم وتوجيههم إلى الأفكار الصحيحة، وقدر فى نفسه أيضاً حال المصريين من حيث كونهم حديثى عهد بهذه النعمة. فعاد يقول: «نحن لا نستطيع أن نطلب اليوم أن تكون حدود الحرية عندنا، هى حدودها فى أمريكا، وانجلترا، وفرنسا، ولو أردنا ذلك لما أردنا شططاً، ولكن إن لم نستطع ما نريد.. فلنرد ما نستطيع».

ووجه الحديث إلى الحكومة التى وافقت على القرار المعيب بدعوى أنها حكومة أبوية.. فقال لها: أن الحكومة الأبوية معناها حكومة الخمول، لأنها تسهل للفرد أن ينام على فراش الكسل، ويتركها تعمل ما تريد.

أما الحرية كما دعا إليها لطفى السيد فقد شرحها على أنها حرية الصحافة، وحرية الخطابة، وحرية التعليم، وحرية القضاء، وحرية الكافة. وقال إن حريتنا فى مصر ناقصة بالقانون، وناقصة بالعمل، ناقصة بالقانون بما تصدره الحكومة من تشريع كقانون المطبوعات وغيره، وناقصة بالعمل لأنه لم يبق للمصرى فى بلاده غير الحرية الحيوانية الصرفة، فعلى النواب المصريين أن يظفروا لمواطنيهم بهذه النعمة فإنه لم يصيبنا من إصلاح الأطيان وإقامة الجسور وحفر الترع خير ما يصيبنا من ضرر الضغط على الحرية، ثم طفق يعلم النواب المصريين كيف يكون لكل واحد فيهم رأيه يعبر عن سياسة الحزب الذى ينتمى إليه، ولو كان مخالفاً لرأيه الخاص، فتلك هى الحياة النيابية الصحيحة.

فيلسوف العصر

يحكى الأستاذ عباس محمود العقاد عن أول لقاء له مع فيلسوف العصر الدكتور يعقوب صروف مؤسس «المقتطف». كان ذلك فى عام ١٩٠٥، والعقاد إذ ذاك تلميذ بالقسم المالى بمدينة «قنا» بالصعيد الأعلى. وكانت زيارته للقاهرة فرصة البحث عن الكتب الخاصة التى تطبعها بعض المجلات المتخصصة، ولا تصل إلى الأقاليم مع الباعة المتجولين، فمضى العقاد إلى مقر مجلة «المقتطف» لشراء كتاب «الكائنات» للباحث العراقى جميل صدقى الزهاوى، والذى يتناول فيه بعض موضوعات فلسفة ما وراء الطبيعة وكانت تثير ريبة القراء العرب إلى ما بعد أوائل القرن العشرين.

يقول العقاد: ولقد كان لقاء الدكتور صروف هو الغرض الأول من زيارة الدار، وكنت وقتها خارجاً من إحدى «المعامع» الأدبية أو الفكرية

التى كان صروف محوراً من أهم محاورها طوال أيام الحرب الروسية - اليابانية، وتعصب الشباب لإحدى الدولتين، فكانت روسيا رمزاً لعصبية المدارس الأرثوذكسية، وكانت اليابان تستحوذ على اهتمام الشبان المصريين باعتبارها دولة الشمس المشرقة، والمثال الأول للأمم الشرقية الناهضة.

وكان أصحاب «المقطم» و«المقتطف» للمرة الأولى فى صف واحد مع أنصار الوطنية وأنصار الدولة العثمانية فى مناصرة اليابان. أما عصبية الثقافة فقد أبرزت أمام الخريجين من المدارس الإنجيلية اسمى يعقوب صروف وفارس نمر، صاحبى «المقطم» و«المقتطف» لأنهما كانا أنبغ من اشتهر من كتاب العلم والسياسة فى عالم الصحافة الشرقية.

وإذ كانت حماسة الشباب الوطنى قد انصرفت عن «نمر» بسبب انحيازه السافر للاحتلال، فقد ظلت حارة ومتدفقة حول «صروف» بعد اعتزاله الكتابة السياسية، وإجماع الشباب على حبه واحترامه ووضعه فى مكانة عالية، حتى أن العقاد - بعد عودته إلى قنا ومعه نسخة من كتاب «الكائنات» عليها كلمة بخط العالم الكبير - تجمع حوله الشباب يستنطقونه عن لقائه مع صروف فيذول: ولقد كانوا يستمعون لى كأنهم يستمعون إلى حديث رؤيا غير قابلة للتصديق، وكانوا يسألون: كيف حييته؟ وكيف رد عليك التحية؟ وماذا قال لك حين سلمك الكتاب؟ وهل فاتحك فى بحث من بحوثه؟ وماذا قلت له عن المؤلف وعن موضوع التأليف؟ وقد كانت دهشتهم الكبرى إننى لم أجد فى الرجل ما يثير الدهشة، إن كانت الدهشة بمعنى الرهبة بل كان الرجل فى الحق

مثلاً للطيبة الأبوية، والوداعة الحكيمة، فلم يختلف شعورى بلقائه الأول بعد أن لقيته مرات فى مكتبه وفى داره وفى بعض المجالس الأدبية، ولم أره بعد ذلك على غير تلك الصورة التى شهدتها منه أول مرة بساطة لا تخلو من الوقار وعاطفة أبوية يشمل بها كل من عرفوه من ناشئة الكتاب والدارسين.

كان يعقوب صروف الذى اكتسب صفة الفيلسوف من الرافضين لفلسفة «ما وراء الطبيعة» وكان ذلك مثيراً للدهشة والغرابة عند العقاد الذى كان - فى مطلع شبابه الثقافى - يفهم فلسفة ما وراء الطبيعة على أنها الفلسفة كلها أو هى الفلسفة فى أهم قضاياها، أو هى - على الأقل - شىء لا يصعب هضمه على الفيلسوف يعقوب صروف.

ويبدو أن صدمة العقاد فى أستاذه جعلت الأستاذ يشرح له حقيقة رسالته فى نهضة الثقافة العربية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وليس معنى أنه «دكتور فى الفلسفة» أنه فيلسوف كفلاسفة البحوث المنطقية النظرية فى قضايا الغيب المجهول، ومشكلات «ماهية الوجود» على منهج أرسطو وابن سينا وابن رشد والغزالى ومحيى الدين ابن عربى وإنما هو فيلسوف فى نطاق العلوم التجريبية التى يقوم برهانها على الوقائع والمشاهدات وإن تناولت مباحث التاريخ والأخلاق ولا تقيم براهينها على الفروض والأقيسة من قبيل براهين الكائنات لإثبات الفضاء المحدود وغير المحدود.

بعد سنوات قرأ العقاد خلاصة المناقشة التى دارت بين الدكتور صروف وبين الأستاذ الإمام محمد عبده فى مجلس على باشا مبارك

حول نفس الموضوع، فأكدت لى - يقول العقاد - أصالة هذه النظرة إلى الفلسفة فى رأى الدكتور صروف، وخلاصة هذه المناقشة أنهم تحدثوا فى المجلس عن كاتب وصفته الصحف بالفيلسوف فقال الدكتور: «إن الناس قد ابتذلوا هذه الكلمة حتى صاروا يطلقونها على غير أهلها، فتساءل الحاضرون: ومن يكون الفيلسوف إذن على المعنى الصحيح؟ قال الدكتور: هو الذى يتقن جميع العلوم، فقال الشيخ محمد عبده إذن لا يوجد فيلسوف على الأرض!! فعاد الدكتور يعقوب يقول: أنه لابد أن يتقن علماً من العلوم، ويلم بسائرها. فقال الشيخ محمد عبده: إن الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية وقبلها الثانوية: على إلمام بالعلوم ويتقنون بعضها.. فما أكثر الفلاسفة بين الأطباء والمهندسين وسائر الطلاب بهذا المعنى. ولما سئل الشيخ محمد عبده: ومن يكون الفيلسوف إذن؟ قال: إن الفيلسوف - كما يفهمه هو - الذى له رأى فى العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه.

ومن هنا كان اهتمام يعقوب صروف بالعلوم الطبيعية كبيراً، وانعكس ذلك على صفحات مجلته «المقتطف»، فقد أثرت تأثيراً كبيراً فى الناطقين بالضاد حتى صارت مرجعاً موثقاً يرجع إليه البحاثة والدارسون ينهلون منها ما يؤيد أفكارهم، وكفى أنها أزالت ما كان يتخبط فيه الشرق من خرافات وخزعبلات حتى يقول أحد أنجب تلاميذه إسماعيل مظهر: إن اسم الدكتور يعقوب صروف ينزل من تاريخ الشرق منزلة الحركات الفاصلة فى تاريخ الفكر الإنسانى.

لورد الصحافة

كان محمد التابعى أستاذ فن الأسلوب الصحفى الحديث، أى الأسلوب الذى تخلص من البلاغة اللفظية، والفخامة الوصفية، وجنح إلى البساطة والسلاسة وعدم التعالى على القارئ، واعتباره صديقاً أكثر منه تلميذاً، وتأثرت بهذا الأسلوب أجيال الصحفيين من بعده .وقبل عملى فى الصحافة وكنت أقرأ للتابعى بشغف شديد قصة حياة المطربة «أسمهان» التى نشرها على صفحات «آخر ساعة» خلال عام ١٩٤٩ وروى فيها تفاصيل مأساة هذه الشابة التى قتلها الهوى قبل أن تلقى حتفها غرقاً داخل سيارتها، بعد أن فرغت من تمثيل دور البطولة فى فيلم «غرام وانتقام» فى يوليه عام ١٩٤٤ . وكانت حياتها القصيرة سلسلة من المغامرات العاطفية مع عدد من المشاهير، ومنهم التابعى نفسه، ولكنها لم تستمر طويلا بعد أن اكتشف التابعى ارتباطها العاطفى بأقرب الكبراء إليه، وهو أحمد باشا حسنين رئيس الديوان الملكى.

كان التابعى يتصرف فى حياته العامة مثل اللوردات، يناقش «أغاخان» فى بذخه، وينزل فى الأجنحة الملكية فى أفخر فنادق أوربا، عملاً بالمثل الشائع «اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب» وفى إحدى هذه النزوات اضطر إلى بيع مجلة «آخر ساعة» إلى مصطفى وعلى أمين كى يسدد من ثمنها نفقات سياحته فى أوربا. وفى ذلك يقول مصطفى أمين: «لم يحدث فى تاريخ الصحافة المصرية أن عاش صحفى فى مستوى الملوكى، كما عاش التابعى، أذكر أننى سافرت معه مرة إلى باريس، وصحبنى إلى فندق «البرنس دوجال». وسأل عن الجناح الملكى فقيل له أنه محجوز، فرفض أن ينزل فى جناح آخر، وصحبنى إلى فندق «جورج الخامس» المجاور وسأل موظف الاستقبال عن الجناح الملكى فأجاب الموظف صاحب السمو الملكى الأمير «أومبرتو» ولى عهد إيطاليا يقيم فيه، وأصر التابعى أن نحمل حقائبنا ونذهب فندق ثالث ورابع وخامس وسادس. وكان الفندق السابع هو فندق «ماجستيك». ووجدنا الجناح الملكى خالياً، فأحضرنا حقائبنا من سيارة إلى التاكسى التى داخت معنا.. وبعد ذلك ذهب التابعى إلى مدينة «سان موريتز» بسويسرا وأصر على أن ينزل فى الجناح الملكى الذى كان ينزل فيه الملك فاروق. وكان كل أصدقاء التابعى فى هذه الرحلة من الأمراء والأميرات والدوقات والكونتيسات، فيجد التابعى متعة غريبة إذا جلس معهم أن يدفع هو الحساب، ولم يخطر ببال أحد من هؤلاء الأثرياء أن التابعى استدان مصاريف هذه الرحلة قبل سفره من الخواجة «ساسون» تاجر الورق المشهور، إذ لم يكن «الدين» فى نظر

التابعى هما بالنهار وذلاً فى الليل، بل كان كافياراً بالنهار، وشامبيانيا فى الليل.

ومع أن أسلوب التابعى كان يتميز بالرشاقة، إلا أنه كان يتحول إلى سهام وخناجر عندما يهاجم، والمعروف أنه بدأ حياته الصحفية ناقداً مسرحياً، ولكن السيدة «فاطمة اليوسف» أقنعته بدخول معترك السياسة عندما انضم إلى مجلتها، فصار أكبر كتاب السياسة فى مصر، وجعل من مجلة روز اليوسف منبراً من منابر الرأى فى خضم الصحف المصرية، ولم تكن أخلاقياته تسمح له بمهاجمة الضعفاء، وإنما يتخير منازلة الأقوياء وذوى السلطان مما أدى به إلى السجن، ولكنه لم يعبأ، وكان يغادر السجن وهو أشد إصراراً على الهجوم. يقول عنه مصطفى أمين: كان لا يحب الذين يدافع عنهم، ولا يكره الذين يهاجمهم.. لا يحقد على عدو ولا يطمئن إلى صديق.. يندفع كالسهم، ويصمد كالجبل، يهوى المعارضة ويمقت ويمقت التأييد، وإذا عارض أشفق على خصمه وهو يذبحه، وإذا أيد سخر لزعيمه وهو يدافع عنه، وفدى متحمس على الورق، ومستقل الرأى فى الحقيقة، صادق الملك فاروق وخاصمه، وتحمس للنحاس وانتقده، أحب النقراشى وعارضه، وطالب بالدستور والديمقراطية ثم طالب بوقف الحياة النيابية فى مصر لمدة ثلاثين عاماً!! عرفته عبقرياً إذا كتب.. وشاباً إذا عشق.. ومقاتلاً عنيفاً إذا حارب، وعاشقاً مجنوناً إذا أحب، له مزاج فى الكتابة.. إذا حوصر عمل ١٨ ساعة كل يوم، وإذا أفلت من الحصار مكث ستة أشهر دون أن يكتب مقالاً واحداً.. التحدى يثير نشاطه، ويقوى خياله، ويبرز عبقريته، والرخاء يجعل قلمه يسترخى، وعقله يستريح، ويفضل أن

يتمدد على شاطئ البحر فى كابرى، على أن يجلس فى مكتبه بميدان التحرير.

* * *

أما أنا.. فطوال سنوات عملى فى أخبار اليوم لم أشهد التابعى عن قرب سوى مرة واحدة، وإنما كنت ألمحه فى هندامه الأنيق وسمته الوقور، وهو يصعد بالأسانسير إلى الدور التاسع حيث مكتب مصطفى أمين، إذ لم يكن له مكتب دائم فى الدار رغم أن اسمه يتصدر قائمة رؤساء التحرير. أما المرة التى رأيته فيها عن قرب فكانت يوم تأميم الصحافة فى مايو ١٩٦٠ . فبعد أن علمنا بالنبأ تجمعنا فى صالة التحرير فى شكل حلقات يسودها القلق والتوتر. بينما كان مندوبو الثورة ورؤساء التحرير مجتمعين عند مصطفى أمين، فلما فرغوا من اجتماعهم هبطوا إلينا، وتجمعنا حولهم.

وبدأ مصطفى أمين يتكلم فى لهجة مشحونة بالشجن وبصوت متهدج، وبجواره التابعى يهمس فى أذنه بكلمات لتصحيح ما يرد على لسان مصطفى أمين من تعبيرات قد تثير حفيظة الثوار، فهو يصف القرار بأنه «تأميم» للصحافة، فيبادر التابعى هامساً «تنظيم» وهى الصفة التى تخفف من واقع القرار، فالتأميم يعنى نقل الملكية إلى الدولة، والتنظيم يقصد تمليك الصحافة للحزب السياسى الوحيد وهو الاتحاد القومى.. وشتان بين المفهومين.

أدب الساندوتش

كان أستاذنا الراحل الدكتور عبداللطيف حمزة، وهو يدرس لنا أدب المقالة الصحفية، يصف لنا لغة الصحافة بأنها اللغة الوسطى التى لا تعلو إلى مستوى الفصحى فى جزالتها، ولا تهبط إلى مستوى العامية فى تجاهلها لقواعد النحو والصرف، وكان الانفلات من قواعد اللغة قد شاع فى لغة الأدب فى الثلاثينيات بدرجة أزعجت حماة اللغة، فكتب أحمد حسن الزيات فى «الرسالة» ينتقد بشدة ظاهرة الأدب السريع الذى يشبه «الساندوتش» الذى يلتهمه الإنسان وهو جالس على المقهى أو قاعد فى الترام، ويلوم أنصار «الساندوتش» لأنهم يزعمون أن قواعد اللغة تشكل قيوداً لا توافق حرية العصر، وأن أساليب البلاغة تعوق السرعة، فجعلوا صعلكة المطاعم نظاماً وفلسفة.

وقال الزيات أنه تلقى رسائل نقدية من أقطار عربية تستنكر بعض ما تظهر المطابع المصرية من لغو الكهول، وعبث الشباب، وتشدد النكير على بعض الأحاديث الأدبية التى تبثها الإذاعة. والواقع الأليم أن الذين درسوا لغتهم وفقهوها من الأدباء النابهين: نفر قليل لا يزيد عددهم على ستة أو سبعة من الكهول الراحلين، وما عداهم تجد طبقة الأدباء كطبقة الصناع والزراع والتجار، يأخذون الأمور بالتقليد والمحاكاة، لا بالدرس والمعاناة، وكما تجد من هؤلاء من ينشئ المتجر ثم يكله إلى أجنبى ينظمه ويرتبه، تجد فى أولئك من يؤلف الكتاب، ثم يدفعه إلى نحوى يعربه ويهذبه.

ودخل الأديب الكبير إبراهيم عبدالقادر المازنى فى المعركة، فأيد الزيات فى حملته على أدباء الجيل الجديد، وجهلهم بلغتهم وتقصيرهم فى تحصيل آدابها، ورأى فى نفسه واحداً من الستة أو السبعة الذين أشار إليهم الزيات، وتحدث عن عنائه فى اقتناء الكتب منذ صباه، ومع ذلك يرى أنه أقل الثلاثة - العقاد وعبدالرحمن شكرى - إطلاعاً وصبراً على التحصيل، ووصف نفسه بأنه يجتر كالخروف، ولكنهما يقضمان قضم الأسود، ويهضمان كالنعامة، «فليتنى مثلهما».

وكتب المازنى فى «الرسالة»: إن أدب «الساندوتش» هو أدب الفاقة والعجلة، وقد أصاب الزيات فى التسمية لأنها تسمية وصف وتقليل فى وقت واحد، وتساءل: ليت شعرى كيف يكون حال الأدب الرفيع فى

مصر إذا خلت أمكنة هؤلاء النفر - أدباء الكهول الذين نبغوا بالاستعداد والاجتهاد. فقبل ربع قرن كان أناس غير قليلين يسألون كما يسأل الزيات اليوم: نرى من يرفع لواء الأدب بعد أعلامه البارزين فى هذه الآونة؟ وهل ينطوى اللواء بعدهم أو تهيئ له الأيام أكفاء تنشره كما نشروه؟

وقال المازنى: فى العالم كله نوازع شتى تنزع بالناس الآن إلى الأدب الرخيص، أو أدب «الساندوتش» أو أدب الفاقة والعجلة، وتلك النوازع خليقة أن تنصر أدب الفاقة، وتنحى على أدب اليسار والوقار، ولكنا حين نرجع إلى العصور الغابرة: لا يصادفنا عصر منها إلا كانت فيه نوازع كهذه النوازع فى نصرة الأدب المبتذل، وخذلان الأدب الكريم العزيز، أما فى مصر: فأدب الجد والأمانة والترفع عن القشور، إنما يقوم على كواهل أصحابه، ولا يقوم على كواهل القراء، وكل ما نملك من عزاء أن الجد والهزل فى ذلك الباب يتساويان، فليس بيننا كاتب هازل يعيش بهزله، وليس بيننا كاتب جاد يعيش بجده، وحين يظهر بيننا من ينعتون أنفسهم بمدرسة الشباب: لم يكن معهم شىء جديد، ولا دليل على الحداثة غير شهادة الميلاد، وراحوا فى دعوتهم يميعون تميع الذى يربت على عطفيه، ويتعجب إلى نفسه، ويفرط فى تدليل سنه، كأنه يتقدم فى سوق الرقيق، لا فى ميدان الفكر وحلبة الصراع.

منافس خطير

تقتطع برامج الإذاعة والتليفزيون مساحات كبيرة من الصحيفة اليومية، فضلاً عن المجلات الأسبوعية. ولو راجعت الصحف من عشرين سنة لوجدت أن هذه المواد لم تكن تتجاوز فقرة أو زاوية متواضعة لا تزيد مساحتها على ٢٠ سم على عمود. الآن توسعت الصحف فى نشر كل ما يصدر عن الإذاعة والتليفزيون، وخصصت لها صفحة كاملة، وأحياناً صفحتين وثلاثاً، وفى حدود معلوماتى فإن أول من أقدم على هذه الخطوة الجريئة هو الأستاذ محسن محمد عندما كان رئيساً لتحرير «الجمهورية» فى الثمانينيات. ويرجع ذلك إلى اهتمامه بالتليفزيون كجهاز سحرى خطير ذى تأثير كبير على ثقافة الإنسان، وله عدة كتب فى هذا المجال معظمها مترجم عن علماء متخصصين تنبأوا بسيطرة جهاز التليفزيون على الجماهير.

وكان على الصحف أن تواكب الانتشار الهائل لمحطات الإذاعة والقنوات التليفزيونية الأرضية والفضائية ومع زيادة ساعات البث المتواصل ليلاً ونهاراً، حتى بات المشاهد يواصل الليل بالنهار وهو قابع أمام الصندوق السحرى، وفى يده (الريموت) ينقله إلى القارات الخمس. ووجدت الصحف أن تقدم خدماتها إلى القارئ فتنشر مواعيد عرض البرامج مغلفة ببعض المعلومات عن البرامج حتى تتسع دائرة معارفه قبل المشاهدة، وفى بعض الأحيان تستبق ساعات البث بالنسبة للمسلسلات الدرامية، فتقدم ملخصاً لأحداث الحلقة الجديدة قبل عرضها فى نفس اليوم.

ومع التوسع فى نشر البرامج التليفزيونية: اتجهت الصحف إلى نقد البرامج وتحليلها والتعليق عليها، خاصة البرامج الحوارية التى تعرض فى شكل ندوات تضم الخبراء والمتخصصين فى موضوع الندوة، وكذلك نشر نبذات عن الأفلام باعتبار أن الأفلام من أهم المواد التى تحظى باهتمام المشاهدين. فتقدم ملخصاً لقصة الفيلم وأسماء أبطاله وخاصة الراحلين منهم، وتلقى الضوء على ا لوجوه الجديدة، ويحتاج المشاهد إلى معرفة المزيد من المعلومات عنهم.

والملاحظ أن برامج الإذاعة لا تحظى بنفس الاهتمام الذى تحظى به برامج التليفزيون. وتخلت الصحف عن نشر تفاصيل البرامج اليومية للإذاعات، وتكتفى بانتقاء بعض المواد الهامة مثل مواعيد إذاعة القرآن الكريم والأحاديث الدينية ومباريات كرة القدم. وتلك نتيجة منطقية لانتشار التليفزيون، وانزواء الإذاعة. وإن كان هناك قطاع كبير من

الناس - وأنا منهم - لا يزالون على ولائهم للراديو، لأنه لا يمنعهم من ممارسة أعمالهم وهم يستمعون إليه، على خلاف التليفزيون الذى يتطلب التفرغ له تفرغاً كاملاً.

وصفحات الإذاعة والتليفزيون تعتبر منطقة تعاون بين الكلمة المقروءة من ناحية، والكلمة المسموعة والمرئية من ناحية أخرى، فالصحف تروج لبرامج الإذاعة والتليفزيون عن طريق التوسع فى النشر، وإثارة اهتمام المستمع والمشاهد، وفى نفس الوقت فإن الإذاعة والتليفزيون تردان الجميل للصحافة عن طريق بث ما ينشر فى الصحف من مقالات وآراء وتحليلات. واستضافة كبار الكُتّاب للتعليق على الأحداث، أو المشاركة فى الندوات السياسية.

ومنذ ثلاثين عاماً كان الإعلامى القدير حمدى قنديل يقدم فى تليفزيون القاهرة برنامج (أقوال الصحف) يستعرض فيه أهم ما تنشره الصحف. ومنذ سنوات قلائل عاد حمدى إلى التليفزيون وقدم برنامج (رئيس التحرير) ومن خلاله كان يقدم الندوات حول موضوعات الساعة. ويستعرض مقالات الكُتّاب فى جميع الصحف العربية، وينتقى عبارات قصيرة لاذعة من المقالات التى يكتبها الكبار والشبان من الصحفيين. ثم توقف البرنامج لفترة، وعاد للظهور على شاشة إحدى القنوات الخاصة. ولا تخلو قناة فضائية من برنامج صحفى.

والصحف المخصصة لبرامج التليفزيون لم تحجب الصفحات المخصصة للفنون الأسبق والأعرق: المسرح والسينما والفنون التشكيلية، فبقيت فى شكل أركان محدودة المساحة بالقياس إلى صفحات

التليفزيون وهى نتيجة طبيعية لاتساع نطاق جماهير التليفزيون وانتشارهم عبر الحدود.. ولكن هل يدوم التحالف بين الصحافة والتليفزيون فى عصر الانترنت الذى يقدم لصاحبه نسخة مطبوعة من الصحف فور صدورها..؟ وكيف ستكون صورة المستقبل بعد ظهور هذا المنافس الخطير الذى يقدم للمشاهد بديلاً عن قراءة الصحف؟؟

فهرس الموضوعات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب٥٧٢٦/ ٢٠٠٤

I .S .B .N 977 - 01 -9051`-9